2020

شاهد على الثمانينات..

قلتَ الجيل الذهبي !

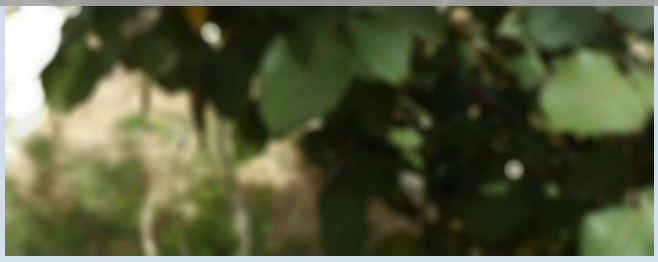

عادل أكتوف

3

إهـــــــــــداء

إلى كل من يجد في نفسه حنينا لزمن مضى..

كانت فيه الجزائر أفضل حالا ..

وإلى كل من يتوق اليوم بصدق.. إلى أن تستعيد بلادنا العزيزة مجدها الضائع..

وأمسها المسلوب..

أهدي هذا الكتاب ..

لماذا..وكيف ؟

الدخول المدرسي والتعليم الأساسي

زلزال الشلف المريع والمنكوبون

فين السادات ؟

مجزرة صبرا وشاتيلا ولبنان الجريح

قناة اليتيمة : الوعي الجماعي الواحد

الرسوم المتحركة .. بين البراءة والقيم الضمنية

الفوز على ألمانيا..وقصة تخدير

محاكمة رجل يسمى.. بوتفليقة

قضية بويعلي والإسلاميين

جانيتو..طفل أبكى شعبا

الأروقة الجزائرية والطابور المقدس

الجزائر ومصر: رياضة بطعم السياسة

بوعمامة بطل المقاومة الشعبية

كان مرة الشاذلي: النكتة المحرمة

حي أول ماي يحكي تاريخا

هل غيّر هبل أو مقام الشهيد وجه العاصمة؟

في كل ركن ..مكتبة

هجرة الأدمغة إلى أين ؟

الحلقة المسجدية ..الوعي المبكر

البلاد الفاسدة: قصيدة طفل

الانتفاضة الفلسطينية.. وحلم التحرير

أحداث أكتوبر: القيرا بدات

رياضة الثمانينات.. أو المجد الضائع

الاشتراكية .. وحلم المساواة المستحيل

التعددية الحزبية و الفوضى السياسية

الرصيف الجديد.. قصة فساد

الوحدة المغاربية.. مشروع ولد ميتا

الترابندو يسلك

عشرية تنتهي ولا تنتهي

العودة إلى المستقبل

لماذا.. وكيف ؟

إن صحّ أن يقال مجازا أن كتابا كتب نفسه ولم يكتبه مؤلفه فهو هذا..

ذلك أن أفكاره ألّحت علّي في الظهور إلحاحا ومنذ زمن بعيد.. غير أنني كنت أسوّف وأؤجل ليس إلا..

وحين قررت أخيرا أن أنقل هذه الأفكار إلى الورق.. انسابت بسرعة وبسلاسة.. وكأنها تتعجل في تسجيل أحداث عشرية فريدة.. تلك هي عشرية الثمانينات..

ولست أدري أمرد ذلك إلى أن تلكم العشرية تزامنت مع أيام الطفولة وبراءتها اللذيذة.. أم لما عرفته من تحولات وتقلبات أثرّت على نهاية القرن العشرين وما بعده تأثيرا.. أم هي آثار ومخلفات النوستالجيا كما يقوله أصحاب علم النفس.. لعله شيء من هذا ومن ذاك..

ومن الغريب حقا أنه لم يتسن لي أن أخط هذه المذكرات أو الذكريات إلا وأنا في خضم كتابة سيرة النبي المختارρ .. الذي تطلّب مني– يعلم الله- جهدا ووقتا وجلدا.. فكنت أكتب الفصل والفصلين أحيانا من هذا الكتاب الذي بين يديك أثناء استراحات الباحث أو المحارب .. وكأن بحث السيرة ذاك حفّزني بقوة ما.. على إخراج شهادتي لأحداث الثمانينات من عالم الأفكار إلى عالم الأشياء.. فيتحقق الحلم القديم في وقت لم أخطط له سلفا.. إنها الأقدار..

لطالما استرجعت مع أبناء جيلي- أثناء نقاشاتنا وحواراتنا- جزءا من تلك الأحداث والذكريات السعيدة منها والمؤلمة.. ومع تطاول الزمن وتباعد المسافات تبدو لي تلك الحقبة الآن كالحلم الطويل أو الطيف الجميل.. وما إن حاولت أن أتلمس ما علق بذاكرتي إذ بإحساس غريب يغمرني.. وكأنني ركبت آلة الزمن وقد عادت بي إلى زمن بعيد بعيد.. يكاد يكون من قرن آخر أو هو كذلك .. حتى أنه يخيل إلي أحيانا أنني غريب عن هذا الزمان ..

غير أن هذه الكلمات ليست مذكرات بالمعنى الكلاسيكي للكلمة.. فلست أرصد طفولتي ومراهقتي وأحلامي وآلامي وآمالي خلال الثمانينات..على شاكلة أيام طه حسين مثلا.. أو يوميات الحكيم.. وما يهم القارئ أي مدرسة قصدت وأي تكوين أخذت ومَن من الأتراب عرفت.. ومن من الناس صادقت وأيهم عاديت.. فمن كان هذا غرضه فسيخيب ظنه ولا شك.. ولعله يجده في الصحف الصفراء أو في بعض حصص التلفاز الحمقاء.. التي تتخذ من النميمة صنعة..

كما أن الأمر لا يتعلق بتأريخ جامد على شاكلة حدث في سنة كذا كيت وكيت وفي السنة التي تليها حدث الآتي والآتي.. وولد في تلكم السنة فلان ومات علان.. فلهذا المنهج مظانه ومنافعه ولا شك.. ولكنه ليس منهجي ها هنا..

إنما الذي يهم القارئ الحصيف – فيما أحسب- ويهمني في المقام الأول هو رصد الأحداث وتسجيلها ووصفها ومحاولة تحليلها ومقاربتها ومقايستها بما يشبهها من أحداث سطرّها التاريخ بعد ذلك بعقود.. فيما يشبه فلسفة التاريخ..

وكثير من تلك الأحداث قد عشته وعايشته دون أن أفهمه أو أستوعبه في حينه.. وأنّى لي ذلك وأنا بعدُ غلام صغير أو فتى غرير لم يأخذ من أدوات التحليل ومناهجه شيئا.. غير أن الذاكرة أسعفتني أثناء الكتابة في استحضار تلك المجريات والمشاهد وكأنني أراها ماثلة أمام ناظري الآن.. في حين أن أحداثا أخرى من العشريات التي تلتها والتي يفترض أن تكون أقرب إلى ذاكرتي من حيث الزمن.. قد أوشكت أن تنمحي تفاصيلها فضلا عن آثارها.. ولا أجد لذلك تفسيرا.. إلا أن أقول بأن ذاكرة الطفل في السنوات العشر الأول لهي أقدر على تجميع وتخزين واستعراض المعلومات من ذاكرة الشاب الذي يكونه بعد ذلك.. بالرغم من أن قدرات الشاب الفكرية والتحليلية تكون قد اكتملت أو هي تكاد.. وهنا تمكن كل المفارقة..

ولعل أسلافنا أدركوا ذلك منذ القدم.. فكانوا يعمدون إلى تحفيظ الطفل القرآن الكريم وما استطاعوا من القصائد والمتون والفنون ليستحضرها عند الكبر.. وتلك طريقة طيبة ومجرّبة.. ولكن لها سلبياتها الكثيرة أيضا.. كما يقوله أهل مناهج التعليم.. ومن ذلك أن الطفل يتعود الحفظ والاستذكار.. لكنه لا يمرّن على النقد والتحليل والسؤال.. وعند الكبر قد تجده حافظة متقنا.. لكنه إذا ما وضع في محك الواقع وتقلباته ومستجداته.. وجدته تائها حائرا ولا يكاد يبين.. لأنه يفتقد إلى أدوات الاجتهاد التي تمكنه من مواءمة العلم بالفهم.. وهيهات يفعل..

أقول هذا لأن أمتنا ابتليت ومنذ القدم بعدم فهم كثير من حوادث الزمان.. فتمر عليها المصائب والنوائب والأزمات والنكسات.. ولكنها لا تستفيد منها إلا القليل الضئيل.. أو ربما فهمت بعد فوات الأوان.. ولات حين مندم.. ثم تروح تلوم الغير مهما كان.. وتجعل منه مشجبا تعلق عليه فشلها.. وتنسب إليه سبب تخلفها وتأخرها.. عن الركب الحضاري..

والفهم هذا هو أساس الوعي الذي يسمح للشعوب بالتقدم نحو الأمام في عجلة التاريخ التي لا ترحم.. وهو الفهم نفسه الذي يمّكننا من مواكبة التطورات ومضاعفة الابتكارات مهما كانت العقابيل والعقبات.. ومن دونه سنبقى نلعب دور الضحية إلى ما شاء الله من الوقت..

إن ذاكرة ضعيفة ومحدودة لهي خطر على أي أمة.. لأنها الجسر الذي يربط بين الأجيال.. والبارومتر الذي تحدد به ثقافة مجتمع ما.. فقد عرفها أحدهم بقوله" الثقافة هي ما تحتفظ به ذاكرتنا بعد نسيان الباقي "..

بيد أن الأخطر من الذاكرة الواهية هو قلة الاعتبار والادكار.. مما يؤدي حتما إلى كثير من اللامبالاة واللامسؤولية.. وهو حال الكثير منا اليوم..

ولعل وقوفي مع العشرية هذه .. وشهادتي المتواضعة تلك.. تأكيد لهذا المعنى.. وهو ضرورة النظر والتفكر فيما سبق لحسن التعامل مع ما سيلحق.. وكم في تاريخنا من عشريات تحتاج

منا إلى وقفات وتأملات واستنباطات.. لكن الشرط الأكيد هو العمل بما علمناه وتعلمناه.. حتى لا يكون الأمر مجرد تنظير وترف فكري.. وإلا كنا كفلاسفة ماركس.. الذين يفهمون العالم ولا يبذلون وسعا في تغييره..

أرجو أنني أفتح بابا لغيري للكتابة عن الثمانينات وما يسبقها وما يتلوها من عشريات.. وبخاصة لأولئك الذين هم أكثر مني إلماما بالمعطيات.. وأقدر على التحليل والبرهان..

أما أنا فحسبي أنني سددت وقاربت.. وقد حاولت أن ألتزم شيئا من الحياد والموضوعية.. وإن كانت الذاتية لا مناص منها في بعض المواقف وفي بعض الأحيان.. وإلا جاءت الكتابة باردة جامدة.. لا تمس شعورا ولا تستفز مشاعرا..

ومن يدري فقد أتكلم عن التسعينات والألفية الجديدة.. إن وجدت لذلك وقتا ورغبة وسبيلا .. وإن ألحت علّي الأفكار في الظهور كما فعلته في هذا الكتاب.. ولكل أجل كتاب ..

الدخول المدرسي والتعليم الأساسي..

أتذكر أول أيام المدرسة وكأنه كان البارحة..

لا أزعم أنه لم يمتلكني الخوف وتعتريني الرهبة كما هو شأن كثير من التلاميذ الجدد، الذين يتركون تدريجيا عالم الطفولة الحر من كل القيود ويلجون عالما آخر تحكمه القوانين والانضباط والصرامة والمواقيت، قلت لعله امتلكني شيء من الخوف لكن الشعور الغالب كان هو الفضول..

كنت أصغر إخوتي، وكان من حظي أن أبقى في البيت وحيدا منذ سن الثالثة لظروف عمل الأم وغياب الأب، واستمر ذلك حتى دخولي المدرسة.. فتعلمت من وحدتي تلك الهدوء والتأمل.. هذا عن الجانب المشرق من الأمر، غير أن الجانب المظلم هو ذلك الذي تكلم عنه علماء النفس والتربية والاجتماع على حد سواء، فالشخصية في مجملها تبنى ما بين سن الصفر وسن السادسة، بما يتلقاه الطفل من مبادئ وقيم ومعتقدات سواء أكانت سلبية أم إيجابية.. ولزوم مكان واحد منفردا في مثل تلك السن له مخاطره العديدة.. ومنها العزلة النفسية وعدم التكيف مع المجتمع.. وما يستتبعه من آثار قد يكون أصابني بعضها..

وعودة لموضوعنا أقول أنني حينما كنت أودع كل إخوتي وهم ذاهبون إلى المدارس كنت أتوق إلى هذا العالم العجيب الغريب الذي يجعلك تلبس المئزر وتحمل المحفظة وتراجع الدروس وتروي مغامرات القسم والزملاء والأستاذ.. وطال انتظاري ..

فما إن وطئت قدمي المدرسة إلا وكنت أمتلك من الجاهزية والاستعداد النفسي لتعويض الفراغ والانتظار الطويلين بما أتعلمه من حروف وكلمات وجمل ونصوص ما حدا بي أن أكون الأول على المدرسة طوال سنون المرحلة الابتدائية..

وكان من حظي – السعيد أو التعيس لست أدري – أن أكون ضمن الجيل المستفتح لمشروع التعليم الأساسي سنة 1981 ولم أكن أعلم حينها بالضبط ما تعنيه تلك العبارة ..غير أن الذي علمته فيما بعد أنه نموذج ألماني في التعليم يعتمد على ترسيخ المعلومات عن طريق السؤال والتكرار.. ولست من أهل الاختصاص لأحكم هنا على نجاح أو فشل هذا النموذج التعليمي..

غير أن الذي يمكن أن أسجله من وحي ذاكرتي أن الأقسام كانت تغص بالتلاميذ فيما يربو عن الأربعين للقسم الواحد، فمهما كان هذا النموذج التعليمي ناجحا حينها في ألمانيا فالأكيد أن المعلم الألماني كان يدّرس عددا أقل بكثير من التلاميذ عندنا، مما يسمح له حتما بحسن العطاء بل وبالإبداع ..

هذا عن العدد، أما عن المعلم في حد ذاته، فلا شك أنه كان يعاني من نقص فادح في التكوين والتأطير قصد التأقلم مع هذا النمط الجديد من التعليم، إذ أن الثمانينات كانت تمثل بداية جزأرة التعليم، بعد التخلي عن الأساتذة السوريين والمصريين والفلسطنيين – بما لهم وما عليهم - بعد انتهاء عقودهم والذين تم الاستنجاد بهم أثناء عملية التعريب إبان السبعينات.. ولما يتم تعويضهم بأساتذة شباب يزج بهم إلى التعليم لأول مرة ويفرض عليهم نظام تعليمي جديد لا يدركون ماهيته ولا أهميته ولا توفر لهم الشروط ولا العوامل المرافقة ثم يحمّلون مسؤولية تطوير مستوى التلاميذ هنا يطرح السؤال: هل امتلكت الجزائر يوما سياسة تعليمية واضحة المعالم؟

وهذا يذكّرني بتبني نظام المقاربة بالكفاءات بعد هذا بثلاثة عقود..نفس الممارسات ونفس الأخطاء..استيراد نظام تعليمي من الخارج..سرعة في التطبيق.. يخرج الأساتذة شهر جويلية في عطلة ويفاجؤون بنظام جديد وبرنامج جديد وكتب جديدة شهر سبتمبر ..انعدام للتحسيس والتكوين.. ثم مطالبة بالنتائج !! فما أشبه اليوم بالبارحة..

وفوق كل ذلك، لا يأتي وزير تعليم إلا ويعد بالإصلاح، وكأن الذي كان قبله الفساد، ثم لما يقترب رحيله يصرّح أنه نجح في مهمته رغم قصور الوقت والإمكانات..ويأتي الوزير الذي بعده فيعلن أنه سيبدأ العمل من جديد لأنه وجد الوضع مريعا.. فمن نصّدق ومن نكذب..

لعلي لم أبتعد عن الثمانينات كثيرا إلا بقدر ما أقارب وأقيس.. وأسجل في هذا السياق مثلا أن الحاصلين على شهادة البكالوريا بعد ذلك بسنوات من رواد مدرستنا الابتدائية لم يتعد **العشرة بالمائة**.. وهي نفس نسبة النجاح الوطنية موسم 1993-1994 فيما أذكر..بمعنى أن مدرستنا مثلت عينة حقيقية لنتائج التعليم الأساسي..

هل كان واضعوه يبحثون عن الكيف لا الكم ؟ هل فكروا في مصير 90 % الراسبين؟ لماذا لم يقيّم هذا النظام التعليمي لدراسة أسباب فشله في الجزائر إن كان فشل حقا؟ وهل صحيح أنه السبب في إخراج جيل من الإرهابيين كما زعم بعضهم ؟

لا أزعم أنني أمتلك الإجابات، ولكن ما يمكنني قوله هو أن التعليم في الجزائر كغيره من القطاعات كان ضحية سياسة استيراد النماذج الجاهزة.. من النموذج اليوغسلافي في الجماعات المحلية إلى النموذج السوفياتي في الاقتصاد إلى النموذج الألماني في التعليم..الخ الخ .. وأتكلم هنا عن فترة الثمانينات لوحدها.. والأدهى والأمّر أن التطبيق دائما يكون على

الطريقة الجزائرية..أي **نسيو ونشوفو وربي يرحمها** .. وغالبا ما تكون النتائج كارثية.. والتقييم غائبا.. والمحاسبة منعدمة..

أما عن الطفل الذي تفوّق طوال المرحلة الابتدائية بمدرسة أحمد سيكوتوري فإنه انتقل إلى متوسطة علي مكي حاملا معه أجمل الذكريات وأسمى الطموحات.. رغم أنه كان يستمع بكثير من الوجل والترقب إلى حديث الكبار الذين كانوا يقولون أن الجزائر على صفيح ساخن.. وأن مستقبلها يبدو غامضا مع آثار الأزمة الاقتصادية والتذمر الاجتماعي.. وتلك قصة أخرى ..

زلزال الشلف المريع والمنكوبون

كان يوم جمعة.. من شهر أكتوبر.. من سنة 1980 وكان الوقت وقت صلاة الجمعة.. وكنت حينها- أذكر جيدا - أتناول الغذاء في المطبخ.. وإذ بالأرض تميد وتهتز بشدة.. وإذ بأصوات الصراخ وسقوط الأواني وفوقها صوت الزلزال المدوي يزيد المشهد رعبا ودرامية..

كان عمري يربو عن الخامسة.. وكانت تلك المرة الأولى التي أعرف فيها معنى الزلزال.. إذ ستتلوه زلازل وهزات كثيرة في السنوات المقبلات.... وقد وجدت نفسي سريعا أسفل العمارة مع كثير من الجيران وسكان الحي..

كان شعوري كأي طفل ينقسم بين الخوف والاندهاش والغبطة أحيانا.. خاصة مع مشهد نزول سلالم العمارة وأنا أرى الرجال والنساء.. الأطفال والشيوخ والعجائز على حد سواء يهرولون ويسارعون نحو المخرج..

عرفنا بعدها أن الزلزال كان مركزه مدينة الشلف أو الأصنام سابقا.. والتي تبعد عن العاصمة بأكثر من مائتي كيلومتر .. وبالرغم من ذلك كانت شدة الزلزال - والتي فاقت 7 درجات على مستوى ريشتر- توحي بأنه كان قرب أحد الأحياء المجاورة.. ولما بدأت تعرض صور الكارثة على التلفاز أدركنا مدى فداحة الوضع..

لقد كانت أرقام القتلى والجرحى والمفقودين مهولة.. إذ قاربت الثلاثة آلاف.. وكانت المساعدات العالمية تتوالى على الجزائر من كل مكان للإغاثة والمساعدة..

تستوقفني هنا بعض المشاهد.. منها أننا انتقلنا حينها ولأيام قليلة من حي أول ماي إلى ديدوش مراد حيث كانت تقطن إحدى شقيقاتي.. لظنها أن عمارات حي ديدوش أصلب وأمتن رغم أن عمارات الحيين هي من بناء فرنسي خالص.. والحقيقة تؤكد وللأسف الشديد أن العمارات الجزائرية وخلافا للبنيات الفرنسية هي الأكثر هشاشة رغم حداثتها.. لا لشيء إلا لأنها بنيت بإسمنت مغشوش وبتقارير مشغوشة وبرقابة مغشوشة أيضا..

وقد فضح زلزال بومرداس سنة 2003 كل هذه الممارسات حين سقطت هذه العمارات كأوراق الكرتون.. مما استدعى إنشاء هيئات جديدة وتعزيز أخرى لاجتناب أمثال هذه الكوارث على حد زعم المسؤولين.. رغم أن زلزال الشلف كان نذيرا كافيا لإعادة النظر في كيفيات البناء والتعمير.. خاصة أن الجزائر منطقة زلزالية بامتياز.. ولكنها ثقافة الإدارة بالأزمة لا الإدارة للأزمة.. وللنكتة أقول أن الرئيس بوتفليقة وبعد اختفاءه عن الأنظار أياما بعد زلزال بومرداس ظهر ليوبخ المواطنين المتضررين قائلا أنه قدر الله فهل يكون ضد قدرة الله وقدره ؟ حاشاه طبعا..

مشهد آخر أستذكره في هذا الصدد..هو تلك الحصص التلفزيونية عن ضحايا زلزال الشلف والذين سموا بالمنكوبين.. فكانت نداءات الاستغاثة ومشاهد البحث عن المفقودين وإزاحة المخلفات والحطام لا يكاد يخلو منها البث التلفزي آنذاك..

وكانت الوعود المقطوعة بالتكفل بجميع المتضررين وفي أقرب الآجال خطابا جديدا بالنسبة لي، فكنت منبهرا بهؤلاء الذين يرتدون البدلات الجميلة ويملؤون الشاشات بهاماتهم الضخمة وبكلماتهم الرنانة وبصوتهم الجهوري مرسلين خطاباتهم المطمئنة.. يسمى هؤلاء **مسؤولين في الدولة**.. كانت العبارة فخمة ولها وقع مميز..

ولما كبرت علمت أن سبب كثير من أزمات الجزائر هو أمثال هؤلاء المسؤولين المتملقين والمتسلقين الذين يقطعون الوعود الزائفة مستفيدين من الريع ومن ثقافة عدم المحاسبة في آن واحد.. ومن المحزن والمضحك حقا أنني شاهدت في إحدى الحصص مؤخرا أنه وبعد أربعين سنة من هذه الكارثة هناك بعض المنكوبين لا يزالون ينتظرون سكنات لائقة بهم !!

المشهد الآخر الذي لا يزال عالقا بذاكرتي هو تغيير اسم المدينة من الأصنام إلى الشلف، نسبة إلى الوادي الذي يقطعها..

وكان في ذلك اعتراف ضمني بضرورة العودة إلى الله في كل كارثة ومراجعة النفس إذ أن الله تعالى يرسل بالآيات تخويفا لعباده وتذكيرا..وهو ما يدل على بقايا تدين في نفوس مسؤولي الثمانينات وإن اعتراه كثير من الصدأ والتحلل..

غير أنني حين أقارن ذلك بما حدث بعد زلزال بومرداس، لا يكاد عجبي ينقضي من الذين حاولوا إقناعنا بأن الظواهر الطبيعية لا علاقة لها بالدين ولا بالخالق.. إنما هي مجرد ظواهر.. وكأننا فرنسيون أو ملحدون..

وتجرأ أحدهم في إحدى البلاطوهات فأوّل القرآن على هواه قائلا : حينما يقول الله " **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها** " أي البنائين " **ففسقوا فيها** " أي لم يحترموا معايير البناء " **فدمرناها تدميرا**" أي سقطت البنايات ..هكذا

وهذه النزعة المادية الصرفة والصلفة التي تفصل الناس عن دينهم كانت مكبوتة عند بعض الإعلاميين وبعض المسؤولين وخاصة في قطاع الثقافة والإعلام خلال الثمانينات، ممن تشبعوا بالثقافة الغربية حتى الثمالة، وقليلا ما كانت تطل على استحياء إذا ما وجدت إلى ذلك سبيلا، غير أنها وجدت المنفذ واسعا بعد الانفتاح أو قل الفوضى المجنونة التي فجّرتها التسعينات.. وتلك العشرية المؤلمة تحتاج إلى شهادة أخرى قد ييسر الله تدوينها إن كان في العمر بقية .. وفي النفس عزما..

فين السادات ؟

فين السادات ؟ فين السادات؟

عبارة علقت بذهني منذ الصغر.. كان يرددها أحد الحاضرين في المنصة المشهورة بعد اغتيال الرئيس المصري أنور السادات سنة 1981.. وهو يبحث عن رئيسه وسط الجرحى والكراسي المقلوبة والدماء المضرجة ..

مشهد عرضه التلفزيون الجزائري في نشرة الثامنة، إذ لم يكن حينها الخبر العاجل موجودا، ولا القنوات الفضائية ولا المراسلون الدائمون..

كانت كل الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تضغط وتعرض في تلك النشرة التي لا تتعدى نصف الساعة إلا بقليل، وهذا طبعا بعد استعراض منجزات الرئيس وخطاباته وتنقلاته واستقبالاته و تعييناته وإعفاءاته..

المهم.. كان المشهد بالنسبة إلى طفل في السادسة صادما.. كيف يغتال رئيس للجمهورية؟ ومن يجرؤ على هذا الفعل الشنيع؟ إذ كان في مخيالنا الجمعي أن الرئيس هو أب للجميع.. وبيده كل الحلول وإليه ترد كل الأمور .. وعزز من ذلك الاعتقاد وجود قناة واحدة تبث الشعارات الاشتراكية الجذابة وتكرر مشاهد الرئيس الرؤوم الملهم البطل .. وأذكر كيف أخرجنا من المدارس مرة وكلنا فرح واغتباط لنصطف في أحد الممرات الرئيسة لشارع في العاصمة حتى نصفق ونهلل لمرور موكب الرئيس بن جديد وبرفقته الرئيس التونسي بورقيبة..

وبعد أن قضينا أربع ساعات في الانتظار.. مر الموكب في سرعة البرق.. ونحن نبذل قصارى جهدنا ليستمع الرئيس لهتافاتنا الصاخبة.. وبالرغم من التعب والإرهاق فقد عدت إلى البيت مساء وأنا أشعر بأداء واجب وطني أثير..

وقد تكرر نفس المشهد بعدها بسنوات طويلة سنة 2001 وحينما كنت إطارا في إحدى بلديات العاصمة.. أمرنا أن نخرج أيضا وأن نهلل ونصفق وأن نصطف في مكان مخصص سلفا لذلك.. تحت طائلة التهديد والوعيد في حال عدم الامتثال..

غير أنه وفي هذه المرة، اهتبلت وزميل لي فرصة الهرج والمرج للتسلل خارجا.. وكانت الفرصة سانحة للتجول في أحياء العاصمة والرجوع باكرا إلى البيت.. بيد أن ما حزّ في نفسي أن نفس مظاهر الثمانينيات الشعبوية أعيد استنساخها في الألفية الثالثة.. وكأننا نصر على عدم استخلاص الدروس أو أن الحنين إلى الماضي يدفعنا للاعتقاد الخاطئ بأن العالم لم يتغير كما أن الأرض لا تدور..

وعودة إلى الرئيس السادات، فقد فهمت بعدها أنه تم اغتياله من قبل فصيل إسلامي كان يأخذ عليه توقيعه لاتفاقية كامب ديفد مع الكيان الصهيوني، وأن هذه المعاهدة كانت سببا في مقاطعة الدول العربية للدولة المصرية وأنها كانت سببا أيضا في نقل الجامعة العربية إلى تونس ..

وقد أحسست وأنا صغير وقع هذه المعاهدة على العلاقات المصرية الجزائرية والتي تجسدت في الجانب الرياضي بخاصة كما سنتكلم عنه في حينها.. إلا أن التناقض الذي كان يدور في رأسي، هو أن الأفلام المصرية كانت تشكل جزءا مهما من حياتنا اليومية ومن ثقافتنا، وفي الوقت نفسه كنا نلقن أن ما قام به المصريون هو خيانة للقومية العربية والقضية الفلسطينية والنضال العربي.. خاصة مع أناشيد المقاومة التي كان يصدح بها صوت فلسطين من خلال الأثير الجزائري وأغاني مارسيل خليفة..التي كنا نظن بالاستماع إليها وإلى فيروز أن القدس ستحرر قريبا.. قبل أن يتغير كل شيء بعدها بسنوات.. وتعقد معاهدات للسلام ويظهر مصطلح التطبيع وتنقلب المفاهيم رأسا على عقب.. حتى لم نعد نكاد نميز بين الوطني الصادق والخائن الخالص ..

وبالرغم من كل هذا فإن مشهد الاغتيال كان لا يزال مروعا وغير مفهوم، لكنني حين رأيت مشاهد أخرى مماثلة لاغتيال رئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي والرئيس الروماني تشاوسسكو وغيرهما خلال الثمانينات، أدركت أن الرئيس ليس محبوب الجماهير بالضرورة كما كان يسوق ويصور لنا.. بل يمكن للشعوب أن تنقلب ضده إذا ما أساء استعمال سلطته أو أفرط في استخدام سطوته..

ولم أكن أعلم حينها أيضا أننا سنرى نحن الجزائريين وفي مطلع التسعينات وبعد عشر سنوات من اغتيال السادات مشهد اغتيال الرئيس بوضياف في ظروف أخرى ولأسباب أخرى ربما لم يبح الزمان بكل أسرارها..

الفرق بين المشهدين كبير..السادات مكث في الحكم أحد عشر عاما بينما بوضياف لم يبق إلا ستة أشهر.. بعد اغتيال السادات عرفت مصر شيئا من الاستقرار والتهدئة.. بينما عرفت الجزائر بعد اغتيال رئيسها دوامة من العنف والقتل دامت أعواما ..طوت مصر ملف اغتيال رئيسها سريعا بمحاكمة المتورطين وإعدامهم.. بينما لا يزال ملف اغتيال رئيس الجزائر مفتوحا.. مبهما ومؤجلا.. كغيره من الملفات الكثيرة ..الكثيرة التي ما زالت تقض مضاجع الباحثين عن الحقيقة ..

فين السادات ؟

الجواب أنه عند ربه بما له وما عليه، كشأن غيره من عباد الله .. لكن العجيب في الأمر أن كثيرا من الزعماء والرؤساء العرب الذين كانوا شاهدي عيان على اغتيال السادات مطلع الثمانينات لم يخطر ببالهم ولو للحظة أن مصيرهم - بعد ما سمي بالربيع العربي- سيكون إما القتل كالقذافي وصدام حسين وحسن صالح أو الهروب كزين العابدين أو الاستقالة كمبارك وأن هذا السؤال الخالد سيوجه إليهم هم أنفسهم : إنتو فين؟

النسيان وعدم الاعتبار بحوادث التاريخ .. تلك طبيعة البشر وتلك طبيعة الزعماء بخاصة..

مجزرة صبرا وشاتيلا ولبنان الجريح

عرفت لبنان ومنذ نعومة أظفاري من خلال الكتب..

فلطالما كنت أقرأ العبارة الشهيرة " طبع في لبنان" مدونة على غلاف كتاب حتى خيّل إلي أن لبنان هاته هي مطابع أقيمت فيها دولة، وليست دولة أقيمت فيها مطابع..

غير أن هذا التصور اللذيذ الساذج بدأ يتبدد شيئا فشيئا.. حين عرفت أن لبنان تمزقه حرب أهلية تكاد تضرب بالأخضر واليابس ..

وما زاد في فضولي واهتمامي بمعرفة المزيد عن لبنان الجريح.. هو مشاهد خروج أفراد القوات الفلسطينية من بيروت سنة 1982 وهم يصوّبون الرشاشات نحو السماء ويطلقون الرصاصات تباعا..

ومشهد آخر مروّع لضحايا مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا على يد قوات الكتائب، وكيف كانت صور جثث الأطفال والرجال والنساء وهي ممزقة الأوصال تنّم عن وحشية طاغية وتبث في النفس الأسى والحيرة.. فكيف إن تعلق الأمر بطفل صغير لا يفقه من شؤون السياسة شيئا، وزد عليه أنه كان لا يرى لبنان إلا كتابا أو كان لا يرى الكتاب إلا لبنانيا..

لقد كان الوقت حينها وقت كأس العالم وأذكر أنني تابعت جل مبارياته وكنت أحفظ أسماء كثير من اللاعبين وأعرف الفرق التي ينتمون إليها وعدد الأهداف التي سجلوها وعمري لمّا يجاوز السابعة.. لقد كان هوس كرة القدم.. وكنت في ذلك متبعا لا مبتدعا..

فالجزائريون يتنفسون كرة القدم لأنهم يرون فيها متنفسهم الوحيد لمشاكلهم ومشاكساتهم، خاصة مع اضمحلال وسائل الترفيه شيئا فشيئا.. وزاد في ذلك أن مستوى كأس العالم لتلك السنة كان من بين الأحسن على الإطلاق.. كما يقوله أهل الاختصاص..

أقول هذا لأن مجازر صبرا وشاتيلا لم تأخذ حجمها الطبيعي والمناسب فيما أذكر من ردود أفعال الناس..هل هو طغيان الرياضة..ربما ؟ هل هو التعتيم الإعلامي المقصود لأن أمثال تلك المجازر تذكّرنا نحن العرب بمدى ضعفنا وهواننا على الأمم.. لعل الأمر كذلك..

لكن الأكيد أن تلك المجازر عرّفتني على عبارات ستصبح مألوفة مكرورة ومملولة ألا وهي الشجب والتنديد التي تجيء في بيانات وزارة الخارجية.. بل وفي القمم العربية والمؤتمرات والاجتماعات العادية والطارئة منها التي تعقدها جامعة الدول العربية والتي كان مقرها بتونس كما أسلفنا.. هذا دون الحديث عن الانقسام العربي بين جبهة الصمود والتصدي وباقي الدول العربية التي لم تكن صامدة ولا متصدية !

والذي أذكره أيضا أن تلك المجازر أيقظت في نفسي نوازع الكتابة على سذاجتها.. فكتبت قصة عن مقاوم فلسطيني يعيش في لبنان وينتهي به المطاف إلى مقتله ومقتل جميع عائلته..على يد القوات الصهيونية

إذاً فقد أدركت ومبكرا جدا أن اليهود هم سبب مآسينا.. فكانوا سببا في الانقسام العربي، وسببا في اغتيال الرئيس المصري وسببا في احتلال فلسطين وسببا في الحرب اللبنانية وسببا في خروج المقاومين منها.. وسببا في كثير من المآسي.. وكنت أسائل الكبار في بساطة شديدة: بما أن اليهود عددهم قليل.. فلما لا يتوحد العرب – وهم أكثر منهم - ويقضون عليهم دفعة واحدة؟ وهكذا تنتهي كل مشاكلنا..

كنت أصغر من أن أفهم الإجابات والتوضيحات مهما بسطت.. بيد أن هذا السؤال المقلق كبر معي كغيره من الأسئلة التي كانت سابقة لأوانها، وأيقنت بعدها بسنوات أن قضية الوحدة العربية تلك التي كنا نجدها في الأشعار المدرسية وفي الأغاني الإذاعية وفي الأفلام التلفزية

وفي الشعارات القومية حتى غدت لنا نحن التلاميذ مسلمة لا يرقى إليها شك.. قد انقلبت علينا ونحن كبار وهمًا مستحيل التحقيق.. مما سيصيب أجيالا بالإحباط حينما يصطدمون بالواقع المرير..

وهذا كشأن كثير من القضايا والأوهام التي تغرسها الأنظمة الشمولية في مواطنيها عن طريق التلقين(endoctrinement) والتكرار ستعطي مع مر السنين ولا بد نتائج عكسية وستتمخض عنها أجيال من الشباب تكفر بكل المبادئ التي تربّت عليها.. كما حدث مع الشباب الروس بل وقل كل سكان أوربا الشرقية في نهاية الثمانينات..التي راحت تسقط أنظمتها الواحد تلو الآخر و تستبدل الاشتراكية المزعومة بالليبرالية المحمومة..

ولم يكن الشباب العربي بمعزل عن تلكم الأحداث.. صحيح أن ثورته تأخرت عقودا بعد ذلك، لكنها أتت على الأنظمة العربية وقوميتها حينما وجدت الأرضية الخصبة والتخطيط المدبر ..

هل كان لليهود دور أيضا في هذه الثورات ؟ ربما .. لكنها لم تكن لترتع في أرضنا لو لم يوّلد الضغط الشديد الانفجار الأكيد..

وهكذا من مجازر صبرا وشاتيلا إلى حرب الخليج الأولى والثانية إلى غزو العراق إلى اعتداءات غزة إلى ثورات الربيع العربي.. وبينها كثير من الأحداث.. نجد لليهود يدا ظاهرة أو خفية.. فهل قدر العرب أن يكونوا مسلوبي الإرادة كالدمية في يد اللاعب بها؟ .. نعم حينما رضي العرب أن يكونوا دمى لا حياة بها.. هنالك صار اليهود أسيادا ونحن العبيد..

أذكر أيضا أنني حينما قرأت كتاب النفوذ اليهودي نهاية الثمانينات أصبت بالذهول، إذ اعتقدت أن العالم كله بيدهم ولا جدوى من مقاومتهم.. لكنني بمرور السنوات والمطالعات أيقنت أن مؤامرات اليهود كانت وما زالت وستبقى، لكنها لا تفلح إلا حينما يكون العرب منقسمين ضعفاء.. وتخبو نارها حينما يثوب العرب إلى رشدهم ويستعيدون كرامتهم بالعمل المحقق لا بالنحيب والانهزام المسبق..

أما لبنان فقد استمرت حربها لنهاية الثمانينات.. لكنها بقيت عندي عاصمة الكتاب بلا منازع..

قناة اليتيمة : الوعي الجماعي الواحد

هيه على أيام القناة الواحدة والجريدة الواحدة والحزب الواحد..

هذه الأحادية كانت تجد أسمى تجلياتها في القناة الوطنية.. كانت تبدأ بتلاوة من القرآن الكريم وبالنشيد الوطني، ثم الشريط الواحد والرسوم المتحركة الواحدة وبعدها الحصة الواحدة والمسلسل الواحد وبالنشرة الرئيسية الواحدة وتختتم بفيلم السهرة الواحد ..

في سني الطفولة كنا نجد الأمر مسليا ويحمل لذة خاصة لا يشعر بها إلا من عايش تلك المرحلة.. فيما سمي بعدُ بالجيل الذهبي..

قد تجد تلك الحلاوة مصدرها في أن ندرة الشيء تزيد من قيمته.. فحين تعلم أنه إن فاتتك حلقة الرسوم المتحركة لسبب ما فلن تعيد مشاهدتها أبدا.. طبعا كان هذا قبل انتشار الأنترنت ووسائل التواصل الحديثة.. فستحرص عليها حرص صاحب المال على ماله..

والمرأة بدورها كانت تعلم علم اليقين أنه إن فاتها متابعة حلقة مسلسل السابعة المصري، فستكون الكارثة التي لا سبيل لتعويضها.. وهكذا..

فكنت ترى العائلة مرّكزة على البرنامج المعروض مجتمعة عليه قابضة على حلقاته قبضها على العنصر الثمين .. تتفاعل مع الممثل فتبكي لبكائه وتضحك لضحكه وتسعد لفرحه وتحزن لبؤسه وتدندن لأغانيه.. وتتساءل في شغف عن الحلقة المقبلة وما تحمله..

نعم كان في الأمر سحر خاص.. خاصة حينما نعلم أن العائلة كانت تملك تلفازا واحدا للجميع.. لأن هذا الجهاز كان يمثل وسيلة من وسائل الرفاه التي لا تسمح الاشتراكية بامتلاكها إلا في حدود .. وهنا أتكلم عن الجهاز المشتغل بالأبيض والأسود.. أما عن ذاك الملون فكان من نصيب قلة إما لها نفوذ أو وساطات قوية وكانت عائلتنا محظوظة بامتلاك التلفزيون الملون بحكم وساطة ما ..

وهكذا كان هذا الجهاز العجيب بقناته الواحدة يصوغ الوعي الجماعي لكافة المجتمع.. فالجميع يشاهد نفس البرامج ويناقش في الغد هاته البرامج التي رآها بالأمس وينتظر نفس البرامج المقترحة عليه.. في برمجة للعقل والتفكير تجعل من المواطنين لا يحيدون عن الخط المرسوم لهم سلفا.. فيما عدا الفئة المحظوظة التي كانت تملك جهاز الفيديو العجيب والتي كان بإمكانها انتقاء الأفلام والبرامج التي تحلو لها والتي كان يسمها الخطاب الرسمي بالطبقة البرجوازية في إشارة إلى شذوذها وحيادها عن الخيار الاشتراكي الذي لا رجعة فيه كما كان ينص عليه الدستور الجزائري آنذاك..

مرت السنون.. وتخلت الجزائر عن خيارها الأبدي وتبنت التعددية الحزبية والفكرية والصحفية أيضا.. فظهرت الأحزاب العديدة والجرائد العديدة والقنوات العديدة .. ولكن الغريب أن هذه القنوات كانت استنساخا رديئا للقناة الرسمية الوحيدة.. حتى صار العديد منا يتحسر على تلك القناة الواحدة التي كانت تبث ست ساعات في اليوم لكنها تتفوق وبأشواط على هذه القنوات التي تشتغل على مدار اليوم ..

أذكر جيدا أن القناة اليتيمة- كما أطلق عليها فما بعد – كانت تعرض أفلاما جزائرية -وخاصة الثورية منها - ذات جودة رغم نقص الإمكانات والأموال، وكانت تعرض أفلاما سينمائية عالمية متبوعة بموائد مستديرة للنقاش والنقد، وكانت تعرض أشرطة علمية ممتازة تعلمنا

منها الكثير، وكنت تجد في بعض الأفلام والمسلسلات المصرية - ومهما قيل عنها- قوة الحوار وعمق الأفكار، وكنا نتابع ملتقيات الفكر الإسلامي بفضول وذهول ونحن لا ندرك حينها عظم العلماء وقدر الفقهاء.. بل وحتى في كثير من الرسوم المتحركة القديمة كنا تستلهم منها قيما أخلاقية راقية .. ولا يعني هذا أنها لم تكن تعرض الرديء والسيئ من البرامج، لكنني أتحدث عن الكثير الغالب..

فهل كان مرد ذلك أن التلفزيون العمومي لا يهدف للربح ولا لتحقيق نسب المشاهدة على حساب المضمون .. بقدر ما يهدف إلى الخدمة العمومية وإلى تغليب الخطاب المحافظ والقيم العائلية.. قد يكون.. وقد يكون مرد ذلك أيضا إلى مستوى القائمين على الجهاز حينها وتمتعهم بالذوق الرفيع والضمير المهني..

بينما نجد قنوات اليوم تبحث عن الإثارة حيثما كانت بل ويخيل إليّ أنها تكرس الرداءة عمدا وتحارب التميز والإبداع وتعلي من شأن أشخاص أقل ما يوصفون بالتفاهة.. بغرض إفساد الذوق العام وفق خطة ممنهجة من دوائر ما ..

تتمثل أمامي الآن وأنا أخط هذه السطور مشاهد عائلية كنا نعيد فيها تمثيل مشاهد لأفلام جزائرية على سبيل الهزل والتنكيت، أو كنا نحاكي فيها لقطات من فيلم الرسالة الذي عرض علينا عشرات وعشرات المرات - حتى أني كنت أحفظ جملا منه طويلة عن ظهر قلب- أو كنا نتقمص أحيانا أخرى شخصية محمود ياسين أو أحمد زكي أو محمود عبد العزيز في أحد أدوارهم بلهجة مصرية خالصة..

أتمثل كل ذلك لأدرك خطورة التلفزيون حينها في تشكيل عقل طفل في الابتدائية.. يبحث عن القدوة والبطولة ويراها متجسدة في الممثلين.. ولا يكاد يفرق أحيانا بين الشخص والشخصية..

لقد مثّلت المطالعة المبكرة والاستماع إلى آراء الراشدين وارتياد الحلقات المسجدية بالنسبة إلي الكفة الموازية والمساهمة في تكوين الرأي الناقد فيما بعد.. وكان هذا شأن الكثيرين ممن أعرف من بني جيلي.. ونحن نتحدث هنا عن تأثير قناة واحدة وتلفزيون واحد..

أما اليوم.. ومع انفجار وسائل الاتصال وكثرة القنوات والوسائط والتكنولوجيات فيما يسمى بحروب الجيل الرابع ومع غياب التحصين الديني والثقافي والأسري.. فإن الشباب عرضة لمختلف الأخطار والأفكار المسمومة والهدامة .. وقد رأينا بأعيننا ما فعلته لعبة الحوت الأزرق مثلا بكثير من المراهقين والتي وصلت إلى إزهاق أرواح البعض منهم عن طريق جرهم التدريجي نحو الانتحار بعد عملية أشبه بغسيل المخ..

لقد قلت في غير هذا الموضع أن الوسائط الحديثة تفترض تاءات ثلاث هي: التواصل والتعلم والتفتح .. لكنها تحمل في طياتها تاءات سلبية في المقابل هي: التوحد والتمييع والتفسخ.. ويمكن أن تعالج بالالتقاء (الأسري) والانتقاء (للمعلومات) والارتقاء (بالأفراد)..

لست أحن إلى زمن الأحادية.. فلكل زمن وسائله وإيجابياته وسلبياته.. ولكنني أرى أن عصر السرعة والمعلومة الجاهزة والسطحية المفرطة والاستهلاك غير الواعي.. قد يقضي على ما تبقى لدى مجتمعاتنا من أخلاق ومثل إن لم نعرف سبل المواجهة والمجابهة..

الفوز على ألمانيا..وقصة تخدير

الجزائر فازت على ألمانيا في خيخون الإسبانية سنة 1982.. كان هذا حدثا مذهلا ومدويا حينها.. فأقيمت الأفراح والليالي الملاح.. وبقيت آثار هذا الفوز ماثلة للعيان إلى يومنا هذا.. فهل هذا معقول؟

أذكر قبلها تأهلنا في تصفيات المونديال سنة 1981 إثر الفوز على نيجيريا في ملعب قسنطينة.. وبمجرد نهاية اللقاء أطلق العنان لأبواق السيارات وصراخ المسيرات وجميل الأغنيات .. وكان ذلك أول عهدي بكرة القدم..

لقد تساءلت عن سر هذه الفرحة العارمة وما هو كأس العالم وما أهمية هذه البطولة ووو.. ولم يأت المونديال سنة بعدها إلا وكنت حافظا لأسماء كل لاعبي الفريق الوطني أساسيين واحتياطيين وبخاصة أن فريقنا قد خاض مباريات ودية كثيرة مع فرق معروفة كان آخرها ريال مدريد.. تلك المباراة المثيرة التي انتهت نتيجتها بهدفين لهدف لصالح الجزائر بعد أن كنا منهزمين أول المباراة..

أذكر أيضا أجواء ما قبل المباراة التاريخية وتصريحات اللاعبين الألمان أبطال أوربا الذين كانوا يتنافسون في إهداء الأهداف التي سيجلونها تباعا في مرمى الفريق الوطني.. وربما كان ذلك الغرور والاستعلاء أحد أسباب هزيمتهم المدوية..

لقد زخرت الجزائر في الثمانينات بجيل من اللاعبين الموهوبين الذين لن يتكرر تواجد أمثالهم لعقود.. فكنت تجد مثلا في منصب الرقم 10 أكثر من لاعب متميز وموهوب في كل فريق من فرق البطولة الوطنية تقريبا وكان أغلبهم يستحق مكانة في الفريق الأول.. لكن لخضر بلومي كان النجم الأبرز على الإطلاق وقد طغت موهبته وغطت على هؤلاء جميعا.. وقل مثل ذلك في كثير من المناصب.. أضف إلى ذلك وجود لاعبين محترفين بارعين أمثال دحلب وزيدان وتلمساني وقريشي..

كل هذا كان غائبا عن الألمان الذين ظنوا أنهم سيقابلون فريقا مغمورا سهل المنال فكانت المفاجأة.. وكان الانتصار حليف الجزائر بهدفين سجلهما ماجر وبلومي..

كل هذا جميل.. فقد فرحنا واحتفلنا طويلا بالانتصار على بطل أوربا.. ووظف الانتصار الرياضي سياسيا كما هي عادتنا نحن العرب.. فقد كان دليلا قاطعا على بعد نظر الرئيس وحكمته وحنكته وتبصره ونجاحه في فرض احترام الدول الأخرى للدولة الجزائرية الفتية التي لم يمض على استقلالها أكثر من عشرين سنة..

لكن الغريب في الأمر والمحزن حقا أننا عشنا على هذا الانتصار الوحيد عقودا أخرى من الزمن.. في وقت وصلت فيه ألمانيا إلى نهائي كأس العالم تلك السنة وانهزمت ثم وصلت إلى نهائي مونديال المكسيك سنة 1986 وانهزمت ثم وصلت مرة ثالثة إلى نهائي 1990 بإيطاليا

وفازت أخيرا وظفرت بالكأس ..فيما بقينا نحن نجتر فوزنا القديم على المانشافت طيلة تلك السنين والتي بعدها.. حتى صارت النعمة نقمة .. ونغمة مملة نسمعها بمناسبة وبغير مناسبة..

ولست أدري لما نبرع نحن العرب في تضييع الفرص وفي تمييعها.. فحتى حينما نحرز انتصارا ولو بسيطا نروح ننظم القصائد ونتغنى بذلك النجاح فيما يستمر غيرنا في مسيرته ويقطع أشواطا بعيدة ولا نفيق إلا وقد تجاوزتنا الأحداث والزمن.. فنعود إلى الرثاء وبكاء الزمن الماضي والبطولات التالدة..

ليس هذا فحسب.. فبعد المباراة الأولى لعب الفريق الوطني مباراة ثانية أمام النمسا وانهزم فيها بهدفين نظيفين رغم أن المنافس كان أقل قوة من ألمانيا وما هي إلا ساعات حتى انتشرت إشاعة بين الناس انتشار النار في الهشيم بأن فريقنا تعرض للتخدير وأن المباراة ستعاد.. فخرجت الجماهير فرحة مستبشرة ومرددة مقولة " ستعاد المباراة " ولم يهدأ روع الجماهير إلا بعد أن جاء النفي والتكذيب في الإذاعة والتلفزة.. وهكذا سقطت الآمال والأحلام .. حتى وإن أعطى الاتفاق الألماني النمساوي على ترتيب نتيجة اللقاء الثالث الفرصة الذهبية لأصحاب نظرية المؤامرة بالاستمرار في الادعاء بأن الجزائر أصبحت تشكل خطرا على الفرق الأخرى لدرجة التآمر لإخراجها حتى لا تحرز كأس العالم ..

والحقيقة التي ظهرت للعيان بعد ذلك بسنوات.. أن فريقنا خرج ذهنيا من المونديال بعد الفوز على الألمان حتى أن اللاعبين لم يتدربوا إلا قليلا في الأيام الفاصلة بين مباراتهم الأولى والثانية.. لأنهم قضوا ساعاتهم في الإجابة على المكالمات الهاتفية التي كانت لا تنقطع بين تشجيع وثناء ومديح.. بل وهناك من كان يطلب منهم العودة إلى البلاد لأنهم قاموا بمهمتهم على أكمل وجه وشرفوا الجزائر أحسن تشريف..

وكانت النتيجة المنطقية الانهزام في المباراة الثانية.. وبعد " المؤامرة" الألمانو-نمسوية كان على فريقنا الفوز أمام الشيلي أضعف فرق المجموعة بنتيجة خمسة لصفر لضمان التأهل للدور الثاني.. وقد انتهى الشوط الأول بالثلاثة لصالح الجزائر.. وكما جرت العادة ظن اللاعبون أنهم تأهلوا وأن تسجيل هدفين في الشوط الثاني مسألة محسومة.. فحدث العكس وسجل الفريق المنافس هدفين.. وخرج فريقنا من الدور الأول مرفوع الرأس.. حسب المعلقين.. أليس مشكل الذهنيات ؟

هذه القصة تلخص كثيرا من مآسينا العربية ..العاطفة الطاغية وانعدام التحكم فيها ..العيش على أمجاد الماضي.. نظرية المؤامرة.. الانتصار الذي يتحول مع الزمن إلى عقبة كؤود بدل أن يكون محفزا في سبيل التقدم .. ثم بروز الشرعية التاريخية التي تؤدي إلى الصراع الحتمي والعقيم بين الأجيال..

لقد قلت بداية أننا لا نزال نتجرع آثار الفوز على ألمانيا إلى أيامنا هاته.. أي بعد مرور أكثر من ثمان وثلاثين سنة على هذا الحدث.. معقول !!

نعم.. فقد شكّل بعض اللاعبين المشاركين فيما سمي بملحمة خيخون كتلة 82 وصاروا يمتلكون الحقيقة المطلقة لكرة القدم في الجزائر ويحتكرون التحليل والحكم على كافة الأجيال الكروية التي تلتهم.. وأحكامهم قطعية وغير قابلة للنقاش.. بحكم أنهم أصحاب الشرعية الكروية التاريخية.. وأنهم هازمو الألمان..

أليس هذا نفس منطق السياسيين والزعماء العرب الذين احتكروا زمام السلطة لعقود بناء على شرعيتهم الثورية التي لا تنتهي صلاحيتها إلا بمغادرتهم لهذا العالم ؟؟

أما رياضيا.. فقد عادت الجزائر إلى كأس العالم التي أجريت بجنوب إفريقيا سنة 2010.. بعد ملحمة أخرى ارتبطت بمصر وبأم درمان..

وتلك قصة أخرى..

محاكمة رجل يسمى.. بوتفليقة

لست بصدد التجريح أو التشفي فذلك ليس من طبعي ولا من شيمي فيما أزعم.. وإنما أسجّل هنا حدثا تاريخيا ثمانينيا أذكره جيدا كغيره من الأحداث ..

فقد أعلن المذيع في التلفزيون الجزائري سنة 1983 وفي نشرة الثامنة الرسمية تحديدا بأن "عبد العزيز بوتفليقة " وزير الخارجية الأسبق قد تم الحكم عليه بالسجن غيابيا لتورطه في اختلاس الأموال العمومية ..

كانت تلك المرة الثانية التي أسمع بهذا الاسم.. إذ كانت المرة الأولى سنة 1979 خلال تأبينية الرئيس الراحل هواري بومدين حين أدلى بوتفليقة بكلمته الشهيرة- مرتديا النظارات السوداء ومعطفه الأسود الفاخر- والتي كنت أحفظ منها عبارة " تركت لي حملا كبيرا" فكنت أنطقها ببراءة الطفولة " تركت لي لحما كبيرا" ..

ربما اختصرت هذه العبارة المقلوبة " اللحم الكبير" كل محنة الجزائر مع مسؤوليها ومنذ الاستقلال.. فكثير منهم يرون الجزائر غنيمة سمينة اللحم كثيرة الشحم.. وكل واحد منهم يسعى إلى التهام وتخزين أكبر القطع منها .. ما دامت الرياح مواتية والزمن في صالحهم.. ويا ليت الأمر توقف عند هذا الحد.. فأمثال هؤلاء المسؤولين لا يجدون لنهمهم حدا .. ولا يعرفون لأنفسهم وازعا يردعهم أو يمنعهم من الرتع والنهب فيما يعتقدونه مباحا مشاعا.. بل ويسعون لاستفادة أبنائهم بل وأحفادهم من هذه الوليمة السخية.. وما أشبه اليوم بالبارحة..

إذاً فقد ارتبط اسم بوتفليقة ومنذ تلك الأيام بصفة " السراق" تلك الصفة التي بقيت لصيقة به طيلة سنوات إلى نسيها الناس أو كادوا مع بداية الأزمة الاقتصادية ثم مرحلة الارهاب وما بعدها..

وعاد اسم بوتفليقة للظهور من جديد سنة 1994 عند انعقاد ما أطلق عليه بندوة الوفاق الوطني.. حينها ذهلت لبروز اسم هاته الشخصية مجددا.. وقلت لأحد أصدقائي حين كنا طلبة في الجامعة أليس هو نفسه الذي كان يدعى السارق؟ والذي حكم عليه بالسجن غيابيا ؟ فرد بالإيجاب .. ولكنه أردف أن الأوقات اختلفت وأن تلك كانت قضية ملفقة وتشتم منها رائحة تصفية الحسابات.. غير أنني لم أوافقه الرأي ولم يفض جدالنا إلى نتيجة حاسمة..

المهم أن بوتفليقة رفض العرض بحكم أن الجزائر كانت حينها تمر بأسوأ مرحلة عرفتها منذ الاستقلال.. فقد كان الإرهاب يضرب بقوة وكان عدد الضحايا يتزايد كل يوم.. وكان سعر

البترول في الحضيض والأزمة الاقتصادية تعرف أوجها.. باختصار كانت البلاد على مشارف الهاوية.. لمن عرف تلك الحقبة..

وفي سنة 1999 عاد اسم بوتفليقة ليطرح من جديد.. بعد أن قلّص الرئيس زروال من عهدته الرئاسية.. ولكن أوضاع الجزائر كانت قد تحسنّت بكثير.. وتجاوزت مرحلة الخطر.. وبدأ تعرف شيئا من الاستقرار وخفّت وطأة الإرهاب بفعل قانون الرحمة و المصالحة.. كما تم انتخاب مجالس محلية وبرلمان جديد بما له وما عليه.

وبدأ الإعلام يلمّع اسم رجل الأقدار بوتفليقة ويحكي مسيرته الثورية النضالية .. وكيف أنه أبعد عن الحكم ظلما وزورا.. وأنه الرجل المناسب لهذه المرحلة بحكم خبرته السياسية وحنكته ودهائه ووو... وكأنه يحضّر الرأي العام للترحيب برئيسه المقبل وبسط الورود أمامه ليدخل القصر الرئاسي بسلالة وهدوء..

كان الأمر شبيها نوعا ما بما فعله التلفزيون سنة 1992 حينما بدأ يذكّرنا بمسار المجاهد بوضياف -والذي لا ينكره أحد -حتى يحضّرنا لقبوله برئيس غير منتخب.. وكانت نهايته الاغتيال بعد ستة أشهر من قدومه كما ذكرناه آنفا .. بيد أن الأمر غير المستساغ هو تلك البساطة المستفزة التي تستعمل في استغفال الشعب بإقصاء الرجال ومحاكمتهم ووصفهم بأبشع النعوت.. ثم بتلميعهم ومدحهم وتقديمهم للمشاهد على طبق من فضة .. دون أي ضمير مهني ولا وازع أخلاقي ..

وهكذا كان الأمر مع بوتفليقة.. الذي تحوّل وبقدرة قادر أو عصا ساحر إلى رجل البطولات والمعجزات.. وبعد أن تولى الرئاسة كما برمج له سلفا.. وبعد انسحاب كافة المترشحين .. دشّن عهدته الأولى وأتبعها بالثانية والثالثة والرابعة في عشرين سنة من الحكم وأوشك على الخامسة قبل أن يطاح به وبشلته بعد الحراك .. في مشهد عجيب ليس هذا موضع بسطه..

ما أريد أن أسجله هاهنا هو أن بوتفليقة عرف بخبرته ومكره ومنذ أول يوم حلّ فيه بالجزائر من أين تؤكل الكتف.. فإنه كان يملأ قاعات التجمعات صياحا وقرعا على الطاولات ويعد ويتوعد ويفيض بالبلاغة والكلام المعسول.. باختصار كان يمارس الشعبوية في أحلك صورها .. متمثلا ومستحضرا روح الرئيس بومدين الذي كانت خطاباته مضرب الأمثال في السبعينات..

وكذلك الشعوب العربية.. التي يمكن أن تضعها في جيبك الصغير لو أحسنت اللعب على الوتر الحساس فيها .. العاطفة .. ثم العاطفة .. وذلك ما كان يحسنه وببراعة فائقة عبد الناصر مثلا في عز أيام القومية .. فإنه كان يخسر الحروب وتتوالى عليه النكسات وكانت مصر تعج بالمحتشدات والمعتقلات.. لكن الشعب كان يتناسى كل ذلك لما يستمع إليه وهو يعده بغد أفضل وأكثر إشراقا.. ويمنّيه بأن القومية العربية ستعصف بالامبريالية وأعوانها وبإسرائيل وطائراتها فينال الثناء والتصفيق والتصديق.. إنه البحث الدائم عن صلاح الدين وعن المهدي المنتظر وعن المخلّص وعن بطولات وفتوحات تخلت عنا أو تخلينا عنها على يد أبطال من ورق تصنعهم الشعوب وتمجدهم وتؤلههم.. وتصدق الكذبة إلى آخر لحظة لعلها تنجح..

لم يعتمد بوتفليقة على التجييش العاطفي والشعبوية المفرطة بل أضاف إلى خلطته السحرية تلك الإغراء وشراء الذمم وتشجيع الفساد والمفسدين وإبعاد كل من يشتم منه رائحة النزاهة وعدم الولاء والخضوع.. وقد كان ذلك واضحا للعيان ومنذ أول وهلة..
لقد كان من سوء طالعي أن بدأت العمل سنة 2001 أي مع بدايات العهد البوتفليقي وعايشت هذه السلوكات المريضة والمشينة وعانيت منها في جميع المؤسسات التي عملت بها وما أكثرها.. ونفس السيناريو كان يتكرر دائما وكأنه فيلم رديء تراه كل يوم.. لقد وضع الرئيس على رأس جميع المؤسسات بوتفليقات صغيرة يأمرون وينهون وينهبون ويتصرفون فيها وفي المال العام كأنهم الملوك أو المعصومون.. ويحيطون أنفسهم بالموالين والشياتين ويقصون الأكفاء النزهاء بل ويعاقبونهم.. وينشرون جوا عفنا من الرداءة في أبشع صورها.. ثم يكافؤون على ذلك وينالون مناصب أرفع ..
كان هذا ميراث بوتفليقة.. مختلس حوكم في الثمانينات.. وجيء به في نهاية التسعينات.. ليختلس مرة أخرى.. ولكنه هذه المرة قام مع شلته وعصابته بأكبر عملية نصب واختلاس عرفها التاريخ الحديث ..

قضية بويعلي وحكاية الإسلاميين

كانت سنة 1985 فيما أذكر..

حينما أعلن أنه تم القبض على أعضاء جماعة إسلامية يقودها المدعو بويعلي استولت على بعض الأسلحة من ثكنة الصومعة وكانت بصدد القيام بعمليات إرهابية..

كانت الجزائر حينها تتبنى الإسلام الرسمي الحكومي إن صح التعبير.. فقد كانت المساجد تخضع لسلطة وزارة الشؤون الدينية كاملة.. وكان الأئمة يتلون الخطب والدروس التي تأتيهم مكتوبة ومعدة سلفا .. وما كان عليهم إلا ترديدها دون زيادة ولا نقصان وبعدها يقيمون الصلاة المفروضة في سكينة وهدوء..

هذا عن المظهر العام الغالب وما كان يبدو ظاهرا على السطح .. أما في الباطن فقد كانت الثمانينات تعرف ظاهرة أطلق عليها الصحوة الإسلامية .. ويمكن أن يقال في أسبابها وتطوراتها وإفرازاتها الكثير.. لكنني لست هنا بصدد التشريح والدراسة - فلذلك موضعه وأصحابه- بقدر ما أسجل أحداثا عشتها وعايشتها وأحاول نقلها بمشاعر طفل ثم بإدراكات فتى وبعدها باستنتاجات شاب.. ليس إلا ..

قلت أن الجزائر لم تكن بمنأى عما يحدث في العالم الإسلامي من انتشار كتب أقطاب الحركة الإسلامية من أمثال حسن البنا والقرضاوي والبوطي وسيد قطب وسعيد حوى والمودودي وغيرهم كثير.. وربما ساهم معرض الكتاب الدولي في الثمانينات خاصة بما وفّره من كمية وافرة وأسعار زهيدة للكتب المعروضة بانتشار المقروئية الواسعة.. قابل ذلك تعطش كبير وفضول أكبر وتوقان للتعرف على هذا الميراث الإسلامي الضخم خاصة مع الدروس والحلقات التي بدأت تنتشر هنا وهناك في المساجد والتي كان خطابها يخالف المألوف من الخطاب الرسمي.. أضف إلى ذلك انتشار أشرطة الشيخ كشك والقطان وغيرهما من الدعاة

وما رافقه من نشاط لأعضاء الرابطة الإسلامية بعد أن أفرج عليهم .. ذلك أن الرئيس الشاذلي كان يؤمن بقدرته على تلجيم أو تحجيم دور الإسلاميين تماما كما اعتقده السادات في السبعينات.. وربما رأى فيهم قوة موازية لأصحاب الطرح الشيوعي والبربري..

وتماما مثلما حدث في مصر.. فقد انتشر الحجاب والقميص.. وتزايد عدد المقبلين على المساجد وانتشر المد السلفي والإخواني على حد سواء .. وكان داخل هذين التيارين من يؤمن بالعمل الدعوي ومنهم من يؤمن بالعمل الحزبي ومنهم من يؤمن بالتغيير الجذري القائم على العمل المسلح على شاكلة التنظيم السري (كما حدث مع بويعلي وجماعته) ومنهم من كان على طرفي نقيض : القائلون بأنه من السياسة ترك السياسة .. وفي الجهة الموازية من كان يكفّر المجتمع والدولة معا..

كان هذا الخليط العجيب نتيجة طبيعية لمرحلة الكبت والتنكيل التي عرفتها الجزائر إبان حكم بومدين.. فكان من المنطقي أن تنتشر كل الأفكار سواء أكانت وسطية أو شاذة أو غريبة في بوتقة واحدة ودفعة واحدة.. وكانت الغربلة والتصفية تحتاج إلى وقت طويل وإلى دعاة وعلماء ذوو همة وجلد..

لقد أدرك نظام الشاذلي أن التسونامي قادم لا محالة.. فحاول أن يحتوي المد الإسلامي بإنشائه لجامعة خروبة وقسنطينة الإسلاميتين وجعل على رأس الأخيرة الشيخ محمد الغزالي صاحب حديث الإثنين الشهير آنذاك عله ينجح في توجيه وترشيد هذه الصحوة.. لكن المحاولة باءت بالفشل.. ذلك أنه تخللها حدثان غيّرا كلا الحسابات وقلبا الموازين رأسا على عقب..

الحدث الأول اقتصادي يتمثل في الأزمة الاقتصادية العالمية سنة 1986 والتي تبعها انهيار أسعار البترول وتوقف المشاريع وارتفاع الأسعار.. وكان من نتائجها ازدياد التذمر بين صفوف الشعب وبداية الغليان الاجتماعي..

أما الحدث الثاني فكان سياسيا واجتماعيا فيما عرف بانتفاضة أكتوبر 1988.. المدبرة أو العفوية .. لا ندري على وجه التحديد.. لكنها كانت الشرارة التي غيّرت مجرى التاريخ فيما بعد.. فكان الدستور الجديد الذي فتح الباب نحو تأسيس الأحزاب أو الجمعيات ذات الطابع السياسي كما كانت تسمى آنذاك..

ولا يمكن أن نغفل دور الأوضاع والتقلبات الدولية التي شهدت انهيار المعسكر الشرقي ونهاية الاشتراكية وتوحيد الألمانيتين وكانت الأحداث تتوالى بسرعة رهيبة..

وكذلك تسارعت الأحداث في الجزائر وتكاثرت الأحزاب كما تتكاثر الفطريات.. حتى أنه كان يمكن تأسيس حزب من مجرد اجتماع في مقهى..

واستغلت جماعة من الإسلاميين وعلى رأسهم عباسي وبلحاج الفرصة التي بدت مواتية لتحقيق الحلم ألا وهو إنشاء دولة إسلامية لأول مرة منذ سقوط الخلافة .. فتأسست الجبهة الإسلامية للإنقاذ على عجل.. وضمت في صفوفها المتعاطفين والطامحين والطامعين والمتذمرين والانتهازيين والحالمين والعاقلين والمجانين .. وقد بلغوا الملايين .. في غياب برنامج أو مشروع واضح المعالم ..

لقد قيل حينها أن النظام كان يسعى لرسم خارطة سياسية جديدة تضم الوطنين والإسلاميين في مواجهة غيرهم من الأطياف.. لا أدري حقا إن كانت تلك مغامرة محسوبة العواقب أو مبالغة في التفاؤل أو كان ذلك سحرا انقلب على الساحر..

لكن المتتبع للخطاب الإسلامي والمتأمل في سلوكات قيادات ومناضلي جبهة الإنقاذ على حد سواء .. كان سيدرك أن أمثال هؤلاء لن يرضوا بغير السلطة كاملة دون تحالف أو تقاسم أو تفاهم.. كانوا يريدونها بسرعة والآن إن أمكن.. كانوا يريدونها بأي ثمن وبأية طريقة .. ولو كان ذلك باستخدام أسلوب بويعلي وجماعته..

وقد كانت النتيجة الحتمية لهذا التفكير الأعوج و هذا الأسلوب الأهوج عشرية دموية.. راح ضحيتها الآلاف من القتلى والجرحى والمفقودين والمتضررين.. رغم الإشارات والتنبيهات والتحذيرات والصيحات من مختلف الجهات..

هل تفكير الإسلاميين مرتبط دائما بالرصاص..كما قال أحدهم.. هل التعجل وقلّة العلم والفهم هي السبب .. هل كانت السلطة تحضّر فخا سقط فيه هؤلاء بغباوة وسذاجة معهودتين من غير تبصر ولا روية.. ربما كان شيئا من هذا وذاك..

الأكيد أن حادثة بويعلي ستبقى محاولة من بين محاولات كثيرة لتيارات مختلفة أرادت وحاولت وبطرق شتى.. أن تصحح – في نظرها - مسارا خاطئا وانحرافا بدأ مع صائفة 1962.. هاته المحاولات التي نادت كلها بالعودة إلى بيان نوفمبر 54 منطلقا .. وكلهم يدّعي وصلا بليلى.. وليلى لا تقر لهم بذاكا ..

الرسوم المتحركة.. بين البراءة والقيم الضمنية

لازال بإمكاني أن أعد قائمة طويلة لأسماء وعناوين رسوم متحركة كانت تعرض علينا في الثمانينات دون عناء يذكر.. وأحسب أن كثيرا من أبناء جيلي قادرون على فعل الأمر نفسه.. وأكثر..

وكثيرا ما راودني سؤال محير.. هل مرد ذلك إلى جودة تلك الرسوم المتحركة التي كانت تعرض علينا إبان الثمانينات.. مما جعلها ترسخ في الذهن.. أم أن الأمر لا يعدو أن يكون حنينا لزمن الطفولة.. ليس إلا ؟

في الحقيقة أن الأمر يحتاج إلى تحليل عميق ودقيق.. ذلك أن المسألة متعددة الجوانب والزوايا.. فكما أن قلة العرض ترفع من قيمته وتزيد من كثرة الطلب عليه كما يقول أهل الاقتصاد.. فكذلك الرسوم المتحركة حينها كانت تمثل بالنسبة إلينا نحن أطفال ذلك الزمان ولندرتها سلعة غالية وكانت الحلقة الواحدة التي لا تتعدى ربع ساعة أو عشرين دقيقة تجد منا كل التركيز والانتباه.. فقد كنا نتسابق في الوصول إلى الديار لنضع المحافظ ونغيّر الملابس ونرتشف القهوة سريعا.. فإذا ما بدأت الحلقة رددنا أغنية البداية وتابعنا الأحداث بشغف واهتمام وأتممنا الحلقة مرددين أغنية النهاية ومتشوقين لما ستحمله الحلقة القادمة..

وأذكر جيدا أنه كان لي كراس خاص بكلمات الأغاني التي كنت أحفظها عن ظهر قلب.. بل كنت أحيانا أتفنن في تغيير الألحان والكلمات..

لقد كانت لغة تلك الرسوم قوّية وفصيحة.. وكثيرا ما كانت الدبلجة تتم في استديوهات لبنانية أو عراقية.. مما جعلنا نكتسب لغة راقية وجميلة.. وكثيرا ما كنت أستحضر كلمات أو جمل منها في حصص التعبير الكتابي.. أو حين امتحانات اللغة..

وكان مصدر تلك الرسوم يابانيا في العموم.. وقد تعددت مواضيعها كثيرا.. لكنها كانت تدور في الغالب حول محاور ثلاثة: إما أن تحكي حيوات ومغامرات بنين وبنات في المدينة أو الريف ينتمون إلى طبقات فقيرة أو متوسطة ويدرسون ويتفوقون أو يمارسون نوعا من الرياضة أو يمتعون بمواهب ما ويسعون في كل ذلك إلى أن يكونوا أطفالا صالحين مع أصدقائهم وأقربائهم ومعارفهم بالرغم مما يتعرضون له من مشاكل ومصاعب.. وإما أن تحكي عن قصص من الخيال العلمي والأبطال الخارقين الذين ينقذون العالم في كل مرة.. وإما أن تحكي عن حيوانات في الغابة وسعيهم للعيش في سلام ووئام ومقاومتهم للأشرار..

لا شك أن كثيرا من تلك الرسوم المتحركة كانت تحمل قيما هادفة ومبادئ سامية كالصدق والإخلاص والتفاني والتضحية من أجل الآخر والعمل والتفاؤل والأمل وغيرها .. وربما حاول القائمون على الدبلجة العربية تطويع بعضها بما يتماشى مع التقاليد والمبادئ العربية.. وكان يبدو لنا كل هذا مثاليا بمنظور الطفولة البريئة.. غير أن هناك قيما أخرى كانت تصدر لنا ضمنيا عير تلك الرسوم.. كعلاقة الفتى بالفتاة وجعلها مقبولة بل ومرغوبة.. وكتبرير الأفعال السيئة التي يقوم بها الأشرار بطريقة ما.. وكتمرير بعض مبادئ الديانات الآسيوية والمسيحية أحيانا وبخاصة في الحكايات العالمية..

ولست أنسى مثلا رسوم فتاة كانت تتعرض لفنون الظلم والقسوة من قبل القائمة على تربيتها لفقرها وفقدان أبيها.. كيف أنها توجهت مرة إلى الكنيسة تدعو.. والصليب فوق رأسها.. بينما المدبلجة تدعو الله في خشوع ملؤه الدموع..

وقد كانت أكثر هذه السلبيات في العموم تضّمن في إطار القصة بسلاسة ولطف.. بينما أصبحنا نرى اليوم الرموز الماسونية وأسماء الآلهة المتعددة واللباس الفاضح والحركات الماجنة تغمر معظم الرسوم الحديثة .. وبصفة سافرة تقترب إلى الوقاحة والإسفاف..

وإني في ذلك أشفق على أطفال الجيل الحالي والأجيال التالية.. وأتساءل حقا كيف سيتعامل الأولياء مع هذا السيل الغامر من الأفكار الهدامة التي صارت تحملها أمثال هذه الرسوم..

وإذا أضفنا تطور التكنولوجيا ووسائلها الحديثة التي غزت البيوت من كل النواحي.. أصبح من المستحيل حقا سد هذا السيل الجارف ..

لقد سبق وأن قلت أن جيل الثمانينات قد وجد تحصينات عديدة في المسجد والمدرسة والبيت كانت تبين لنا مواضع الخلل في الرسوم المتحركة وتقوّم من اعوجاج أفكار بعضها .. وهذا بالرغم من أن سلبياتها تكاد لا تقارن بما نشاهده رسوم اليوم.. وإذا أضفنا إلى كل هذا مشكلة صارت داهية العصر ألا وهي العنف والجريمة.. صار الأمر خطيرا حقا..

ومهما قيل عن الرسوم المتحركة القديمة فإنها كانت تدين العنف وتمقته.. وحينما ترى المعارك فإنها كانت تمثل الصراع بين الخير والشر.. وكان تفضيل السلام خيارا أساسيا..

بحيث تجد الطفل قد وعى هذا المبدأ جيدا لدرجة كبيرة.. وقد ساعد على ذلك الهدوء ونقص حوادث الإجرام التي كانت لما تحدث في القليل النادر تجابه بالاستنكار والتعجب الشديد..

أما اليوم ومع انتشار الجريمة المنظمة والعشوائية.. وأخبارها التي تملأ الشاشات والجرائد والقنوات.. صارت مشاهد القتل والدماء والأشلاء المتناثرة شيئا مألوفا بل ومحبوبا لدى الأطفال والناشئة.. وساعد على ذلك ألعاب الفيديو والكمبيوتر التي لم تزد الطين إلا بلة..

وكثيرا ما كنت ألاحظ أن جيل السبعينات والثمانينات الذي تربى وترعرع في كنف تلك الرسوم المتحركة الهادئة والهادفة هو أكثر هدوءا ودماثة خلق إذا ما قورن بأجيال التسعينات وما بعدها التي عرفت ويلات الإرهاب والعنف بمختلف أشكاله.. والتي تبدت آثارها في سلوكات مريضة لا تمت إلى التربية والأخلاق بصلة..

إنني أتساءل عن أطفال الألفية الثالثة الذين يتلقون سيلا جارفا من البرامج في القنوات والشبكات واللوحات الرقمية وأجهزة الإعلام الآلي وغيرها من الوسائل التكنولوجية التي لا تنتهي.. أتساءل وأتخوف حقا من كيفية تشكل عقلياتهم في ظل استقالة الأولياء وعجز الحكماء.. وما هي القيم التي سيحملها هؤلاء حينما يكبرون غدا.. حينما نعلم أن البرامج التي يشاهدونها لا تخلو من مخاطر ومنزلقات أخلاقية عديدة..

وإذا أضفنا إلى ذلك غياب الكفة الموازية التي نعني بها المطالعة والتواصل والقدوة فالوضع يدعو حقا للقلق.. والعشريات المقبلة كفيلة وحدها بحمل الإجابة ..

وإن غدا لناظره قريب..

الأروقة الجزائرية.. والطابور المقدس

راهم جابو الزيت..جابو القهوة.. جابو السكر..

صيحات وإعلانات يعرفها جيدا أصحاب الثمانينات.. وخاصة منهم رواد الأروقة وما أدراك ما الأروقة ..

كانت هذه المؤسسة الوطنية تمثل سياسة الدولة الاشتراكية التي تحتكر الإنتاج ووسائله كما تقول النظريات الماركسية .. وكانت الأروقة إلى جانب سوق الفلاح هي الممون الوحيد بالمواد الغذائية بالنسبة للمواطن البسيط.. الذي كان يقضي الساعات الطوال في الطوابير التي لا تكاد تنتهي لأجل الظفر ببعض المواد الأساسية .. هذا إن نجح في هذه المهمة الصعبة

.. إذ كثيرا ما كان يعلن القائمون على هذه الأروقة أن السلع قد نفذت وأنه يتعين على الطابوريين -إن جاز التعبير- العودة في الغد أو بعده..

وأذكر جيدا أن هؤلاء العاملين في الأروقة كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة ويعتبرون أنفسهم شخصيات ذات نفوذ واعتبار.. وقد كان.. فإن احتكار الدولة لأمثال هذه المؤسسات جعل من المواطن المسكين تحت رحمتها فيما يتعلق بقوته اليومي.. وكانت العائلات كثيرة العدد تستفيد من هذا الامتياز.. وتبعث بأبنائها القادرين على السعي جميعا للحصول على أكبر قدر من السلع الموجودة..

ولم تنج عائلتنا من هذا التقليد الأصيل .. فبالرغم من صغر سني إلا أني كنت أشارك في تقليد الطابور وأحاول مزاحمة الكبار للحصول على علبة قهوة أو كيس سكر أو دلو من الزيت.. وكان المحظوظ منا من يتمكن من الدخول في الطابور مرة أخرى و الحيازة على ضعف العدد المسموح به .. فكان يعتد بذلك أياما..

الاحتكار لا يأت بخير.. وكما ورد في الحديث النبوي " **المحتكر خاطئ**" .. سواء كان هذا الاحتكار من قبل مؤسسة خاصة عظمى أو من قبل الدولة نفسها.. لأن ذلك يؤدي دائما إلى نتائج وخيمة ..

لقد تعرضت شركة ميكروسوفت لعقوبات ضخمة حينما حكم عليها القضاء الأمريكي بالاحتكار.. بينما تزعم النظرية الاشتراكية أن الدولة لما تحتكر وسائل الإنتاج فإنها بذلك تقضي على الطبقية وتجعل الناس سواسية .. وهو ما كذبه الواقع والممارسة..

فالاشتراكية بطبيعتها تحمل تناقضات وأوهام عديدة تطوح بها بعيدا عن التطبيق العملي والواقعي.. بالرغم من أن كارل ماركس في كتابه رأس المال قد نقد الرأسمالية نقدا علميا وبنّاءً فيه كثير من الصدق والموضوعية.. لكنه حينما طرح البديل لهذه الرأسمالية المتوحشة كما كان يسميها فإنه اقترح الطرف النقيض لها وهو مرحلة الاشتراكية التي تلغى فيها الطبقات وتجسد فيها دكتاتورية البروليتاريا لينتهي التاريخ حسب تحليله بمرحلة الشيوعية التي تغيب فيها الملكية تماما ويصبح كل شيء مشاعا بين الناس.. كما كان الأمر في بداياته.. وهو ما يذكّرني بالفيلم المصري " البداية " الذي تناول هذه القضية تحديدا.. وكيف أن"البلح " كان في الأصل ملكية متاحة للجميع وبالقدر نفسه.. قبل أن تتدخل عوامل أخرى..

إنها الطوبوية والخيالية التي لن تتحقق إلا في عقول الحالمين السرياليين.. لأن هذا البديل الاقتصادي والاجتماعي وهو فكرة الاشتراكية.. مضاد للطبيعة البشرية نفسها وغير قابل للتطبيق أساسا.. لأنه يلغي المنافسة والتفاوت الأكيد بين البشر في المواهب والكفاءات والاستعدادات ويخلط بين العدل والمساواة ..

لكننا معشر العرب وعلى عادتنا ونحن نعيش أسوأ مراحل الضعف والخنوع وفي القرنين الأخيرين تحديدا.. نعجز عن إيجاد الحلول التي تناسبنا وتناسب تركيبتنا الفكرية والنفسية وتلائم بيئتنا الاجتماعية.. فبعد أن نالت الدول العربية استقلالها راحت تتبنى النظريات القومية والاشتراكية على علاتها وتفرضها على مجتمعاتها فرضاً.. معتقدة أن فيها الخلاص والازدهار.. ولم تفق إلا وقد كفرت الدول العريقة في الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي بالنظريات والتطبيق معا.. وحولت بوصلتها إلى النموذج الغربي اللبرالي.. وما

كان على الدول العربية إلا التحول أيضا كما يقلّد الطفل الغر أباه في حركاته وسكناته دون وعي ولا بصيرة..

لقد عرف عمال ومسؤولو الأروقة الجزائرية آثار هذا الانقلاب المفاجئ وكانت نتائجه كارثية عليهم كوقع الإعصار الذي يدمر كل شيء.. فإثر انتفاضة أكتوبر 1988 اقتحمت الجماهير الأروقة المقدسة وأخرجت ما فيها من الخيرات المخزونة والسلع المدفونة والمواد الغذائية المكنونة .. ولم تحتج هذه المرة إلى طابور ولا وساطة .. وكان ذلك آخر عهد بأسطورة الأروقة وأسواق الفلاح..

لقد فقد عمالها مناصبهم ومكانتهم.. وقد رأيت بعضهم بأم عيني يبيع البالي من السلع على الأرصفة ورأيت منهم المتسكع ورأيت منهم من أصيب بلوثة في عقله..

ولم تكن الأروقة وحدها التي آلت بها الظروف إلى هذا المصير.. بل كان هذا الانقلاب المرير من نصيب معظم الشركات والمؤسسات العمومية التي تم تفتيتها أو تفليسها تحت مسمى التعديلات الهيكلية والإصلاحات الاقتصادية في التسعينات..

حتى تظهر مؤسسات أخرى ولوبيات جديدة تمارس احتكارا من نوع آخر وبتغطية سياسية متينة أفرزت منظومة فساد أتت على الثروات والمدخرات فأفنتها .. لتتكرر القصة من جديد ولتعرف الجزائر معاناة أخرى.. فمن شعار العمل والصرامة لضمان المستقبل.. إلى الجمهورية الثانية.. إلى اقتصاد السوق.. إلى المصالحة والوئام.. وصولا إلى الرشادة والحوكمة والانتعاش الاقتصادي.. تعددت الشعارات والنتيجة واحدة.. بلد الخيرات .. تحكمه العصابات.. وشعب يلهث وراء الفتات..

إن مثال الأروقة قد جسد عقلية الجزائري في عمومه الذي إن منحته أدنى سلطة أو نفوذ.. استكبر واستعلى على الأضعف منه.. لكنه في الوقت ذاته يندد بالحقرة والظلم الممارس عليه ممن هو أعلى منه سلطة ونفوذا.. وما يسلم من هذا المرض النفسي والاجتماعي إلا القليل النادر.. وتلك إحدى مآسي الجزائر

أرى مستقبل كثير من الشركات المحتكرة اليوم من مصير الأروقة.. إنها مسألة وقت ليس إلا.. وتجد العاملين فيها يرتكبون نفس أخطاء المرحلة الاشتراكية.. التقاعس عن العمل.. الخدمات الرديئة.. السلوك المشين تجاه المواطنين.. والتذمر الدائم من الأوضاع والمسؤولين .. وفي الأخير انتظار الراتب والمطالبة بالمزيد..

إن غياب ثقافة المؤسسة والمواطنة ومشكل الذهنيات والسلوكات السلبية سيظلان دليلا على تخلفنا وتبعيتنا.. كما كانت الأروقة شاهدا على أزماتنا..

فهل نعي ؟

جانيتو.. طفل أبكى شعبا

جانيتو يا مانينا.. جانيتو يا جانينا

إنها كلمات من أغنية شهيرة – لا أعرف ترجمتها على وجه التحديد- لفيلم هندي عرض عشرات المرات في الثمانينات.. حتى كاد أن يصبح جزائريا عن جدارة واستحقاق..

إنها قصة علاقة بين رجل فقير وامرأة غنية يأبى أبوها أن يزوجها إياه.. وينشأ من علاقتهما طفل معاق يتكفل والده بتربيته بعد أن تتخلى أمه عنه لترتبط بطبيب غني ومشهور.. وتمضي الأيام ويتقابل الطفل في حفلة مع أمه دون أن يكون على دراية بالأمر ويغني هاته الأغنية التي كان يرددها أبوه لوالدته من قبل.. فتسترجع الذكريات وتندم على ما فات.. ويتعهد الطبيب بمعالجة هذا الطفل المعاق مهما كلفه الأمر وفي حال فشل فإنه سيلغي زواجه ويعتزل مهنة الطب.. وبعد أحداث وأحداث على الطريقة الهندية ووسط أغاني كثيرة.. يشفى الطفل وينجو أبوه من الموت المحقق وتعود إليه أمه في نهاية سعيدة للجميع.. مرددين نفس الأغنية في مشهد ختامي..

تبدو القصة مألوفة ومكرورة وتعالج موضوعا طالما تناولته الروايات والأفلام والمسلسلات عن ارتباط الرجل الفقير بالمرأة الغنية أو العكس.. والفوارق الطبقية في المجتمع.. وعن مأساة الطفولة التي تتخلل هذه الصراعات والاختلافات..

لكن يجب أن ننظر إلى السياق الزمني الذي عرض فيه هذا الفيلم.. وما أحدثه من أثر بالغ امتد لعقود من الزمن ربما ..

إن الأفلام الهندية كان لها كثير من المتابعين والشغوفين بها لاسيما في فترة السبعينات والثمانينات.. يوم أن كانت دور السينما منتشرة ومتنوعة في المدن الكبرى كما تحدثنا عنه آنفا.. وقد تخصص البعض منها في عرض هذه الأفلام وسط حضور جماهيري كثيف..

وقد استعرض فيلم " عمار قاتلاتو" هذا الواقع باقتدار.. فقد كان كثير من الشباب لا يتابع هذا النوع من الأفلام وحسب.. بل يسجل الأغاني في أشرطة الكاسيت ويتبادل الحديث منها والقديم.. ويتتبع أخبار الممثلين والممثلات إلى حد الهوس..

وإذا أضفنا إلى كل هذا الطابع العاطفي الذي يميز الشعب الجزائري.. فإن عرض فيلم رومانسي يتناول مأساة طفل معاق حرم من حنان الأم وعاش الفقر وعبّر عن ذلك بأغنية جميلة يفسر ولو في جانب منه ذلك الإقبال الشديد والقبول البعيد الذي عرف به هذا الفيلم.. حتى صار علامة بارزة في تاريخ السينما الهندية في الجزائر..

كما لا يفوتني هنا أن أسجل طرافة برمجة القناة اليتيمة آنذاك.. فقد كان القائمون عليها حينما يعجبون بفيلم أو مسرحية أو عمل ما.. فإنهم يعرضونه المرة بعد الأخرى.. إلى حد الملل.. في حين أن هناك أعمالا أخرى ذات جودة وموضوع لم تعرض إلا لماما.. ربما لأنها لم ترق أذواقهم أو أن ذلك يعود لأحداثها وأساليبها المعقدة التي تحتاج إلى من يستوعبها من الجمهور والنقاد.. وكانت الحجة التي تعرضها مقدمات البرامج الشهيرات أثناء الثمانينات لتبرير هذا التكرار: " نظرا لطلبات المشاهدين" ..

كما تجدر الإشارة إلى شيء هام وذي بال يتعلق بالأفلام والمسلسلات الأجنبية على الخصوص والتي كانت تعرض إبان الثمانينات.. إنه يتعلق بالمشاهد التي قد تصادم في بعض الأحيان منظومتنا الأخلاقية وتقاليدنا المجتمعية.. ذلك أن الجزائر ومنذ الاستقلال ورثت

مؤسسة التلفزيون والإذاعة بمكوناتها الضخمة ولوجستيكها المتطور حينها.. ومعلوم أن انسحاب التقنيين الفرنسيين المفاجئ شكّل تحديا هائلا بالنسبة للجزائريين الذين تمكنوا من ضمان استمرارية هذا الجهاز الحساس رغم صعوبة المهمة..

وقد تبنى القائمون على النظام الجزائري سياسة التفتح منذ أول وهلة.. فكانت تعرض البرامج الجزائرية جنبا إلى جنب مع المصرية والفرنسية والأمريكية والهندية بين فيلم ومسلسل وشريط.. غير أن لهذا التفتح مخاطره ومحاذيره.. فقد كانت اللقطات الخادشة للحياء تشكل حرجا كبيرا للعائلة الملتفة حول التلفزة الواحدة بحيث تحاول تجاهلها أو التظاهر بذلك على الأقل.. كان ذلك خلال الستينات والسبعينات بخاصة.. وفي الثمانينات ومع موجة الصحوة الإسلامية اهتدى القائمون على التلفزيون إلى قص أمثال تلك المشاهد كحل وسط ولو أدى إلى خلل ما في السياق الدرامي.. أي تغليب الجانب الأخلاقي على الفني خلافا لأصحاب المدرسة التي تقول أن الفن لا يجب أن يعرف حدودا ولا كبتا ولا توجيها.. إنه الفن من أجل الفن..

أتناول هذه النقطة هنا.. لأنني أذكر جيدا أن صحفيا جزائريا سأل إحدى المستثمرات الهنديات في الجزائر عن فيلم جانيتو فكان رد فعلها أن قالت أنه ليس فيلما عائليا.. وكأنها تشير بذلك إلى بعض المشاهد فيه التي لا يجدر أن تراها العائلة مجتمعة.. ظانة أن الفيلم يعرض كامل المشاهد كما هو الشأن في دور السينما.. وهي بذلك تجهل حيلة القصla censure التي أجادها المكلفون بها مع تراكم الخبرة ومرور الزمن..

إن مسألة أخلقة الفن وما يجب عرضه أو لا في جهاز خطير يساهم في صناعة الوعي الجماعي كجهاز التلفاز مسألة بالغة الأهمية.. واجهتها معظم الدول العربية بين مانع لعرض البرامج الأجنبية منعا مطلقا وبين متفتح تفتحا مطلقا وبين ماسك للعصا من الوسط.. وهو مشكل يعود دائما إلى أننا مجتمعات مستهلكة ماديا وثقافيا.. وحينما نواجه مشكلة في المنتوج الذي يصادم عاداتنا وتقاليدنا في شكل من أشكاله نسارع إلى ردود فعل عاطفية ومتعجلة.. لا هي تعالج المشكل بعمق ولا هي تطرح البديل المناسب.. لأنه وببساطة لا نحب العمل وفق خطط مدروسة ومنهج سوي وعلى مستويات بعيدة.. إنما تغمرنا ثقافة الكلام والجدال العقيم وحسب..

وأضرب مثلا هاهنا بإيران التي كانت في فترة حكم الشاه غربية الهوى.. وكانت تعتمد على السلع والخدمات والثقافة الأمريكية على العموم.. كيف أنها وبعد ثورة الخميني سنة 1979 وبالرغم من الحظر الأمريكي فقد ولّدت أزمتها همة وعرفت كيف تنتج صناعة وزراعة محلية جعلتها تحقق الاكتفاء الذاتي في مرحلة أولى وتصبح مصدرة في مرحلة ثانية.. وعرفت أيضا كيف تتخلص من تبعيتها الثقافية لترتقي بأفلامها ومسلسلاتها إلى المصاف العالمية..

أقول هذا لأن موجة الأفلام الهندية القديمة وعلى رأسها جانيتو قد أفل زمانها.. لكن موضتها عادت حديثا في أشكال أخرى نجحت مؤسسة بوليوود في إعادة إحيائها وتصديرها بفضل ما تنتجه من أعمال تبلغ المئات سنويا وتدر على المنتجين الملايين.. لأن الهند أدركت ومنذ

زمن أن الصناعة السينمائية أو ما يعرف بالقوة الناعمة صارت سلاحا لا يقل أهمية عن الأسلحة الفتاكة بما تحمله من قيم .. وبما تساهم فيه من تطوير الاقتصاد وتنويعه..

وإلى أن ندرك ذلك.. سنبقى نشاهد أو نستذكر أو نستحضر الأفلام الهندية.. متابعين.. ناقدين.. أو متهكمين.. منتظرين ربما بطلا هنديا خارقا يتغلب على جميع المعضلات.. أو نهاية سعيدة على شاكلة> جانيتو ينتصر فيها الخير على الشر بأغنية واحدة.. فلننتظر..

الجزائر ومصر: رياضة بطعم السياسة

بص شوف بيبو بيعمل إيه..

كان هذا أحد الشعارات الرياضية المصرية في الثمانينات.. والتي تحتفي باللاعب الكبير محمود الخطيب الذي كان يحمل الرقم 10 وكان يعتبر حينها المنافس الأول للاعبنا المميز لخضر بلومي على المستوى الإفريقي.. كما يتنافس اليوم الجزائري رياض محرز والمصري محمد صلاح على الألقاب الافريقية..

عشت أول لقاء ساخن بين المنتخبين الجزائري والمصري سنة 1983.. وكان يندرج في إطار تصفيات الألعاب الأولمبية التي أجريت في لونس أنجلس سنة 1984..

هذه الألعاب تحديدا عرفت غياب الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الشرقي ردا على الولايات المتحدة الأمريكية التي قاطعت ألعاب موسكو سنة 1980 احتجاجا منها على الغزو السوفيتي لأفغانستان سنة 1979.. وهكذا لعبت السياسة دورها وأقحمت نفسها في الرياضة والرياضيين وهو أمر قديم..

قلت هذا لأربط بين الأحداث ولأفسر مدى تعجب طفل في الثامنة للأجواء المظلمة -بمعناها الحقيقي والمجازي- التي سادت لقاء الذهاب بين الجزائر ومصر.. حيث كانت السماء ملبدة والأمطار غزيرة والملعب أصبح طينا كما هي العادة حتى وصفه المدرب المصري آنذاك بقوله " احنا مش متعودين نلعب في طينة " .. وانتهت في الأخير بالتعادل الايجابي هدفا في كل شبكة .. رغم أن فريقنا بادر بالتسجيل منذ الدقيقة الأولى.. ولكن الأهم والأغرب أن هذا الطفل كان يسمع كلاما غريبا عن أصدقاء اليهود وعن الخيانة في إشارة إلى معاهدة كامب ديفد وإلى العلاقات السياسية الباردة والمتوترة أحيانا التي كانت تجمع الطرفين الجزائري والمصري..

ووجد هذا الاحتقان متنفسه في مبارة كرة القدم تلك.. كما سيجده خمسا وعشرين سنة فيما بعد - وبأكثر حدة وسخونة- فيما عرف بملحمة أم درمان.. لتصدق مقولة التاريخ يعيد نفسه ..

فهل يمكن أن تختصر العلاقات الجزائرية المصرية في مجرد مباراة كرة قدم ؟ .. أكيد أن الإجابة ستكون بالنفي ..

لكن الأكيد أيضا أن السؤال المحير أيضا هو لماذا تعرف اللقاءات الرياضية عموما والكروية خصوصا بين الشقيقين هذه الحدة العنيفة التي تتجاوز الحدود ؟

الحقيقة أن الرياضة قد تكون مخلوطة بالسياسة أحيانا.. فإذا عدنا بالزمن إلى الوراء.. أيام تكوين أول فريق وطني جزائري لكرة القدم سنة 1958 تحت مسمى فريق جبهة التحرير الوطني إبان الاحتلال الفرنسي.. كان الهدف منه رياضيا وسياسيا .. رياضي بمواجهة أكبر وأحسن الفرق على المستوى القاري والإقليمي والعالمي.. وسياسي بأن يسوق لفكرة الاستقلال عن الاحتلال.. كيف لا وقد غادر كثير من اللاعبين الموهوبين فرقهم الفرنسية وكان منهم من كان بإمكانه المشاركة في كأس العالم لسنة 1958.. لكنهم فضّلوا الألوان الوطنية وضحوا بمسيرتهم الكروية في سابقة تاريخية.. والغريب في الأمر أن الفريق المصري لم يلعب ضد هذا الفريق.. رغم الدعم الذي كان يقدمه عبد الناصر علنا وسرا للثورة الجزائرية .. فهل كانت تلك بداية الحسابات؟

وبعد استقلال الجزائر سنة 1962 حاول عبد الناصر تصدير تصوره للقومية العربية للجزائر عبر الرئيس بن بلة الذي كان من أشد المعجبين بكاريزما الرئيس المصري.. لكن الأمر لم يفلح وبخاصة بعد الإطاحة ببن بلة على يد الرئيس الراحل هواري بومدين أثناء مشاهدته لمباراة في كرة القدم بين الجزائر والبرازيل .. بومدين الذي كان يمتلك تصورات مختلفة والذي امتلك كاريزما طاغية أيضا ..

وكان تصور عبد الناصر للقومية العربية قائما على احتواء الدول العربية وتمصيرها وجعل القاهرة العاصمة المتحكمة في زمام كل الشؤون العربية على شاكلة موسكو مع دول أوربا الشرقية .. لذا فقد دخل في صراعات مريرة مع اليمن والسعودية وسوريا بعد إلغاء الوحدة.. وقد فهم بومدين اللعبة جيدا فكان يجيد مسك العصا من الوسط .. باستفادته من الخبرة المصرية دون الوقوع في التبعية..

وعرفت فترة السبعينات قدوم السادات وحرب أكتوبر سنة 1973.. حينها كانت العلاقات الجزائرية المصرية في أحسن أحوالها بتعاون الطرفين في محاربة اليهود ..

غير أن توقيع السادات لاتفاقية كامب ديفد سنة 1979 اعتبرته معظم الدول العربية طعنة في الظهر وخيانة للقضية الفلسطينية.. فكانت المقاطعة مع مصر التي استمرت أعواما.. وتزامن ذلك مع ظهور جيل جديد متميز في مصر والجزائر في الرياضات الجماعية وخاصة منها كرتا القدم واليد مع بداية الثمانينات.. فكانت اللقاءات بين الطرفين مناسبة للتنافس الرياضي هدفه بسط الهيمنة على القارة الإفريقية.. ومناسبة أيضا للتنافس السياسي بين من قال نعم للسلام مع الكيان الصهيوني ومن قال لا للاعتراف لا للتفاوض لا للسلام فيما عرف باللاءات الثلاث..

وقد بلغ هذا الصراع أشده في لقاء العودة لتصفيات الألعاب الأولمبية والذي تكلمنا عن ذهابه أعلاه.. إذ خرجت المباراة عن إطارها الرياضي وتحول المستطيل الأخضر إلى ساحة قتال وعراك شديدين بين الفريقين.. لم يتم فضه إلا بصعوبة بالغة.. ومع استمرار هذا الاحتقان لسنوات مديدة وبالرغم من تحسن العلاقات ظاهريا بين الطرفين سياسيا.. مع عودة الجامعة العربية إلى القاهرة .. إلا أنه استمر رياضيا وبدرجات متفاوتة عبر توارث الجماهير لذكريات المواجهات الساخنة كتلك التي جمعت الفريقين خلال تصفيات كأس العالم لسنة 1990 نهاية الثمانينات.. واستمر سياسيا وإلى أيامنا هاته بمحاولة كل بلد فرض منطقه عربيا وإفريقيا وإقليميا بما يمتلكه من مقومات وإمكانات .. وتمثل التجاذبات الدائمة داخل أروقة الجامعة العربية جزءا من هذا الصراع الخفي والعلني ..

وما كانت أحداث أم درمان إلا حلقة في هذه السلسلة الطويلة من هذه المنافسة التي تتخذ شكلا رياضيا وتخفي دوافع سياسية.. فقد كان النظام المباركي يسعى إلى التوريث وكان النظام البتوفليقي يرسخ مبدأ التثبيت .. وأين سيجد النظامان خيرا من فرصة التأهل إلى كأس العالم لتمرير المشروع في سلاسة ووسط أجواء البهجة والاحتفال.. غير أن المشكل الوحيد يكمن في أن المتأهل لابد أن يكون واحدا .. وهنا يتطلب الأمر استعمال كل الوسائل الممكنة ..

والسياسة هي فن الممكن ..

بوعمامة.. بطل المقاومة الشعبية

بوعمامة .. كان فيلما سينمائيا متميزا ومفاجئا..

عرضه التلفزيون الجزائري سنة 1984.. وقابلته بشغف ولهفة طفل لما يتم العاشرة..

كان مرد هذا الشغف فيما أحسب.. أن الفيلم يتحدث عن بطل من أبطال المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي والذي طالما سمعنا عنه في المدرسة.. كما سمعنا عن المقراني والحداد والزعاطشة ولالا فاطمة والأمير عبد القادر وغيرهم كثير ..

لقد ورثت حب الأفلام السينمائية المميزة في الثمانينات عن أخي الأكبر رحمة الله عليه.. والذي كان متابعا حصيفا وناقدا متمرسا للمشاهد واللقطات والسيناريوهات.. فأذكر أفلاما عالمية مثل " العراب" و" الإمبراطور الأخير" و" أماديوس" شاهدتها برفقته وكنت أستفيد – وأنا المشاهد الصغير - كثيرا من تعليقاته وتعقيباته التي كانت تنم عن ذوق رفيع ومعرفة واسعة بخبايا الفن السابع..

لقد كانت السينما الجزائرية حينها تعرف ركودا وشحا في الإنتاج مقارنة بفترة السبعينات التي اعتبرها المختصون أزهى عصورها وعرفت تتويج الجزائر بالسعفة الذهبية على يد فيلم " وقائع سنين الجمر" لصاحبه محمد لخضر حامينا .. غير أن غياب سياسة ثقافية واضحة المعالم مع نقص التحفيزات والإمكانيات التي تمنحها الدولة لقطاع السينما ساهم في التراجع التدريجي..

لذا كان نجاح فيلم تاريخي ضخم يتناول إحدى فصول المقاومة الوطنية و يتطلب إمكانات ضخمة مستبعدا جدا .. فكانت المفاجأة كبيرة.. وكانت الحبكة الجيدة والإخراج المبدع لبن عمر بختي والتمثيل العبقري لعثمان عريوات كلها عوامل ساهمت في خروج هذا العمل الفني المميز والذي بقي خالدا..

أكد هذا النجاح وللمرة الألف أن الجزائر بإمكانها تقديم الكثير وفي شتى المجالات.. بما تملكه من ثروات ومقومات .. غير أن المشكل كان وسيظل دائما في العامل البشري وفي الذهنيات..

وكم أضاعت الجزائر من فرص وبددت من أموال لأجل مسؤول جاهل أو قرار غير عاقل.. وكأنه قد ثبت في مخيال هؤلاء أن النجاح هو عدوهم اللدود الذي يجب أن يحاربوه أينما وجد .. حتى يحافظوا على مناصبهم ومكاسبهم..

فخذ الممثل عثمان عريوات الذي أثبت قدراته العالية في الجانب الدرامي والكوميدي على حد سواء والذي يعد من أحسن الممثلين على مدار تاريخ السينما الجزائرية كيف أنه قوبل بالتهميش والإقصاء وكان هذا شأن كثير من الممثلين والمخرجين.. وأتذكر أن الممثل فوزي صايشي على سبيل المثال الذي أبدع في فيلم " سقف وعائلة " في بداية الثمانينات وافتك جائزة مهرجان قرطاج أمام نور الشريف وفيلمه الشهير" سواق الأتوبيس" وقد توقع له النقاد والعارفون بالتألق في قابل السنين كيف أنه اكتفى بأدوار باهتة في أفلام قليلة.. لضعف الإنتاج.. بينما أبدع نور الشريف في عشرات الأفلام المصرية.. ونال عديد الجوائز والتكريمات..

هذه الوضعية الثقافية غير السوية هل كانت مقصودة أم ناجمة عن غياب رشد.. أرجّح الفرضية الأولى.. إذ أن الكتب والجرائد والمجلات والأفلام والمسلسلات تساهم كلها في تنمية الوعي الثقافي وفي إنشاء أجيال قادرة على النقد والتحليل والفهم .. وهو ما لا تستسيغه الأنظمة الشمولية التي تريد أن توجه وتبرمج الجماهير على هواها ووفق رؤيتها الضيقة.. وكان هذا الأمر مفهوما نوعا ما في مرحلة الإشتراكية..

أما بعد الانفتاح السياسي في التسعينات.. ومع فتح المجال أمام الجرائد الخاصة والمستقلة فقد استبشر الجميع بإعادة بعث للقطاع الثقافي.. ليكون أكثر إبداعا وحرية غير أن الأمر لم يزدد إلا سوءا.. فظهور المنتجين الخواص الذين يملكون الأموال ولا يمتلكون الثقافة المصاحبة بالضرورة.. لم يقدم الإضافة المرجوة بل كان النتاج دون مستوى أفلام السبعينات أو الثمانينات بمراحل..

هذا عن الجانب الثقافي من الموضوع.. أما عن الجانب التاريخي.. فقد ألهب فيلم بوعمامة النقاشات والمجادلات حول تاريخ المقاومة وكذا دور المناطق المختلفة من الوطن .. فكثيرا ما كان لمبدأ التوازن الجهوي دور مفصلي في كسب التهدئة الاجتماعية وفي تذكية الشعبوية أيضا..

وأذكر مثلا كيف تم توقيف عرض مسلسل مصري عن " عقبة بن نافع الفهري" حينما تحدث عن فصول مقاومة الكاهنة وأبنائها للفتح الإسلامي.. حتى لا يفتح بابا للاحتجاج من قبل سكان المناطق الأمازيغية للبلاد.. ولو كان الأمر مثبتا في المصادر التاريخية..

وقل نفس الشيء عن المقاومة والحركة الوطنية.. فلا يجب أن تغلّب الأفلام والمسلسلات دور منطقة على حساب الأخرى أو على الأقل يجب انتقاء الشخصيات والأحداث التاريخية المراد تمثيلها حسب ما تقرره السلطات الوصية..

ولذلك عرف عرض فيلم " الوهراني" في دور السينما لغطا وجدلا كبيرين لأنه يشير إلى تقصير ما لمنطقة وهران وما جاورها في مقاومة الاحتلال الفرنسي أثناء ثورة التحرير.. وكذا تم توقيف عرض فيلم عن البطل " العربي بن مهيدي" لأنه لا يصوّر نضال هذه الشخصية بصفة كافية هذه المرة.. حسب وزارتي الثقافة والمجاهدين..

وهكذا.. صار الفن والتاريخ بين طرفي كماشة.. انعدام السياسة الثقافية من جهة وطغيان السياسة السياسوية من جهة أخرى.. وبينهما يموت الإبداع والتألق ..

لقد تقرر تحضير فيلم عن الأمير عبد القدر ومقاومته بعد النجاح الساحق الذي عرفه فيلم بوعمامة.. نحن نتحدث عن الثمانينات .. ومن حينها ونحن نسمع عن تحضيرات وديكورات وسيناريوهات وعن أسماء لممثلين ومخرجين .. ومرت السنون والعقود ولم ير هذا المشروع النور كغيره من المشاريع الكثيرة التي وئدت في مهدها.. بل وعرف تحضير هذا الفيلم تحديدا فضيحة مدوية في وقت البحبوحة المالية.. حين علم بعدها أنه قد تم تبديد أموال طائلة وفي ظروف غامضة كانت قد خصصت لإنجازه في حين لم يتم تصوير لقطة واحدة.. ليدخل بذلك الفيلم التاريخ في كونه الأغلى ميزانية في توظيف الأشباح..

لقد ساهمت أفلام مثل بوعمامة ودورية نحو الشرق وأبناء القصبة والعصا والأفيون وغيرها من الأفلام الثورية في إذكاء الوطنية عندنا ونحن صغار.. لكن هذه الجذوة تكاد تنطفئ اليوم بسبب أدعياء الوطنية.. الذين وظّفوا هذه الأفلام بخسّة في تنويم الجماهير.. في حين أنهم لم يفكروا يوما في وطن ولا في وطنية.. وكانوا أشبه بالممثلين الفاشلين..

ولبئس ما فعلوا..

كان مرة الشاذلي.. النكتة المحرمة

موقف طريف ومحرج غاية الحرج.. ذاك الذي تعرضت له – وعلى المباشر- ماما نجوى مقدمة برامج الأطفال الشهيرة في الثمانينات.. حينما طلبت من الأطفال تقديم أغنية أو سورة أو نكتة.. فتقدم أحدهم وشرع في مساهمته قائلا: كان واحد النهار الشاذلي.. فسارعت الصحفية لمقاطعته على عجل.. مطالبة الأطفال بالتصفيق عليه.. وعرفت كيف تتخلص من هذه الورطة ..

لقد كانت الصحفية محقة في تصرفها.. كيف لا والأمر يتعلق برئيس الجمهورية.. في وقت كان المساس بشخصه عن قصد أو عن غير قصد وعبر التلفزيون الرسمي خصوصا جريمة لا تغتفر.. فقد أثر عن صحفي في السبعينات وأثناء تقديمه للنشرة الرئيسية باللغة الفرنسية وبعد أن أتم قراءة الأخبار المحلية وما فيها من نشاطات الرئيس وإنجازاته وحين أراد الانتقال إلى الأخبار الدولية قال جملته الشهيرة passons maintenant aux choses sérieuses أي لننتقل الآن إلى الأمور الجدية.. فكانت تلك آخر نشرة يقدمها.. ويقال أنه تعرض للاستنطاق والتضييق..

كان هذا زمن بومدين وقبضته الحديدية.. أما في زمن الشاذلي بن جديد فإنه لم يعهد عن رئيس كمٌ من النكت والحكايا الساخرة كتلك التي كانت تتحدث عنه وعن شريف مساعدية أحد المقربين إليه.. وأذكر وأنا في الابتدائية كيف كنا نتبارى فيمن يمتلك أحدث النكات وأفضلها عنهما .. لقد كانت حقا أياما لا تنسى..

والشعب الجزائري صاحب نكتة ودعابة.. وكثيرا ما كان يختصر مآسيه في عبارات ساخرة وحكايات تحاكي الواقع فيما يشبه الكوميديا السوداء.. ولم تشذ سنوات الإرهاب والدم عن هذه القاعدة.. ففي أحلك الأيام وأشدها صعوبة.. كنت تسمع نكتا عن الحرس البلدي وعن الحواجز

الأمنية المزيفة التي كان يقيمها الإرهابيون وعن قوات الجيش وعن الإسلاميين وهكذا.. وهذا أمر متروك لأصحاب الاختصاص من علماء الاجتماع والنفس الذين سيجدون في هذه السلوكات وردود الأفعال مادة خصبة للدراسة والتحليل والاستنتاج .. أما أنا فأسترجع الذكريات وأسجلها للمهتمين..

لا أعرف تحديدا لماذا كان الشاذلي بالذات الرئيس الأكثر تعرضا للنكت.. هل كان ذلك لأنه كان أكثر انفتاحا وتساهلا من سابقه وأن التخلص من دكتاتورية بومدين جعلت الشعب يطلق العنان للسخرية من الأوضاع السياسية .. ربما .. وربما كان هذا الأمر صنيعة الأجهزة والدوائر المقربة من الرئيس والتي كانت تسوّق لفكرة أنه لا يمتلك من الأمر شيئا وليس سوى ديكور جميل بما أنه كان مثالا للشياكة واللياقة ليس إلا.. أما صناعة القرارات والاستراتيجيات فإن منبعها لم يكن في الرئاسة.. بل في مكان آخر.. وهو احتمال قائم.. فمما ارتبط بذهني منذ الصغر.. أن الناس كثيرا ما كانوا يستخدمون عبارة **"راهم داروا " " راهم قرروا "** حينما يستجد أمر هام أو طارئ في السياسة .. أي يستعملون ضمير الجمع الذي يوحي بوجود جماعة ما في مكان ما هي التي ترسم سياسة البلاد.. وهذا الغموض والضبابية ربما يجد جذوره في الثورة الجزائرية التي كانت تعتمد على الجماعة وعلى السرية.. واستمر هذا التقليد لما بعد الاستقلال .. وهذا ينقلني إلى ذكريات الطالب الجامعي في كلية العلوم السياسية الذي كنته.. إذ كان أحد الأساتذة يطرح علينا هذا السؤال دائما حينما كنا نتناول الأنظمة السياسية بالدراسة فيقول: من يحكم ؟ فكنا نجيب حسب طبيعة النظام.. ملكيا كان أو رئاسيا أو برلمانيا أو عسكريا أو شبه رئاسي.. لكننا كنا دائما نتوقف حيارى عندما يتعلق الأمر بالجزائر .. لأن طبيعة الحكم معقدة جدا ولأن العلبة السوداء كما يسميها دافيد استون التي تتخذ فيها القرارات الجزائرية تكاد تكون فريدة من نوعها في العالم..

لقد جاء الشاذلي فجأة وذهب فجأة.. فحينما تم تعيينه رئيسا سنة 1979 كان ذلك قرارا مفاجئا للجميع.. فقد اخترعت عبارة **الأعلى رتبة والأقدم في الجيش وظيفة**.. لتنطبق عليه تماما.. في حين أن بوتفليقة كان يرى نفسه الوريث الشرعي لبومدين بحكم أنه كان أقرب المقربين إليه.. ولذلك حمل هذه الغصة معه عشرين عاما و حينما عاد انتقم من الشعب الذي لم يوله حاكما عليه.. شر انتقام..

وكان انسحاب الشاذلي مفاجئا أيضا.. بعد الدور الأول من الانتخابات التشريعية سنة 1992 وقبل استكمال الدور الثاني.. في سيناريو غريب لم يتوقعه أحد.. خاصة مع إعلانه حل البرلمان ونشوء ما سمي بالفراغ الدستوري..

وبين التعيين والانسحاب أراد الشاذلي أن يكون رجل الدولة المتفتح.. المتصالح مع التاريخ بإرثه الثقيل.. صاحب الإصلاحات الاقتصادية التي تقترب من الاشتراكية على الطريقة الصينية.. وصاحب الإصلاحات السياسية التي تتبنى التعددية المتوازنة.. وصاحب تصور جديد للعاصمة على شاكلة باريس ومستحدث مفهوم المدن الجديدة الحديثة.. ومناصر الفكر الإسلامي المعتدل.. ومشجع فكرة الوحدة المغاربية .. لكن معظم هذه التصورات والمشاريع الطموحة كانت مرتبطة بالسوق النفطية.. فما إن اهتزت وتدهور معها سعر البرميل حتى انهارت كقصر من ورق..

وزادت الهزات الاجتماعية والمطالب الإيديولوجية والاحتجاجات السياسية الطين بلة .. فمن الربيع الأمازيغي سنة 1980 إلى أحداث الجامعة المركزية سنة 1982 إلى قضية بويعلي

سنة 1985 إلى الأزمة الاقتصادية سنة 1986 وصولا إلى أحداث أكتوبر سنة 1988.. كانت كل هذه الأحداث والوقائع كفيلة بإضعاف مخططات الشاذلي التي تكسرت على صخرة السياقات والملابسات المحلية والدولية..

هل كان الشاذلي فعلا ساذجا ومغلوبا على أمره كما تصوره النكات.. أم كان أكثر ذكاء مما يظهر عليه في الحقيقة .. وكانت هذه السخرية تخدمه نوعا ما في تنفيذ خططه.. أرجح الرأي الثاني دون تردد..

فالشاذلي يذكرني في تقاطعات كثيرة بالسادات.. الذي تم تعيينه من مراكز القوى التي كانت ترى فيه الشخص الأمثل الذي يسهل تطويعه وتمرير القرارات من خلاله فكان أذكى من تلك المراكز وانقلب عليها واستبد بالأمر.. لكنه دفع ثمن أخطائه القاتلة وانفراده بالقرارات غير محسوبة العواقب ..

وكذلك الشاذلي وجد نفسه أمام مراكز قوى عديدة.. منها ما خلفه بومدين ومنها ما نما واستقوى مستفيدا من الظروف.. وكانت المواجهة المباشرة معها مستحيلة.. فكان الرجل يتحين الفرص ويضع لنفسه طريقا وسط المناورات والحسابات واللوبيات.. وربما كانت معركته الأخيرة في محاولته بدء تجربة جديدة بالتعايش مع الإسلاميين والوطنيين والديمقراطيين جميعا القطرة التي أفاضت الكأس.. لأنها هددت مصالح أطراف أحست بالخطر فتدخلت لوقف التجربة وصاحبها..

ولم تكن تلك نكتة للأسف..

حي أول ماي..يحكي تاريخا

كم يغيظني ويؤسفني أن أمّر اليوم بحيي القديم.. حي أول ماي العتيق.. فأراه على حالته البائسة تلك .. من تدهور للعمارات واتساخ للأرصفة وحفر في الطرقات وكثرة لمحلات المأكولات والمقاهي والتي شوّهت المنظر العام وأفسدته.. ناهيك عن فوضى المرور والضجيج الذي لا يطاق..

وتعود بي الذاكرة مرغما إلى سنوات الثمانينات حين كان الحي جميلا هادئا مكتمل الأوصاف.. فقد كنت تجد تحت أقواسه الراقية.. المخبزة والصيدلية ومحل المجوهرات والمصور والحلاق والمكتبة والمقهى والجزار وبائع الأحذية ودكان الملابس .. في تناغم وانسجام مع متطلبات الحياة والعمران حين كان للعمران معنى .. وذلك قبل أن يفسد الذوق وتغييب المعايير ويطال المسخ كل شيء جميل..

ولذلك تفسير.. ولا يجوز أبدا كتبرير.. فإن جزائر الثمانينات وتحت مظلة الاشتراكية كان حس الربح السريع فيها نادرا.. لأن الطبقات كانت متقاربة.. فكنا نشتري من أروقة واحدة ونتسوق من نفس السوق ونتعلم في نفس المدرسة ونلبس نفس اللباس تقريبا.. فيما عدى فئات محظوظة بحكم مناصب الآباء أو الأمهات.. وكانت البلديات والجماعات المحلية وبالرغم من احتكارها من قبل المنتمين إلى حزب جبهة التحرير الوطني لم تعرف الفساد إلا قليلا أو ربما كانت فرص الفساد غير متاحة كما هو عليه الحال الآن..

غير أن تحوّل الجزائر إلى اقتصاد السوق غير المضبوط فتح الباب على مصراعيه أمام ثقافة الترابندو والتهريب والكسب غير المشروع وتكوين المافيات الاقتصادية المستفيدة من القروض والمؤسسات الوهمية بلا حسيب ولا رقيب.. هذه الممارسات وتغير العقليات نحو التكديس المادي بعيدا عن مشروعية الوسائل المستخدمة عاد بالسلب على ثقافة الأحياء وعلى طريقة تنظيمها.. فبدأت المحلات والدكاكين المتناغمة الهادئة بأصحابها القانعين والمؤدبين تنحسر شيئا فشيئا وتترك المكان لشباب يافعين متلهفين همهم الأول جمع أكبر قدر من الأموال في أقل وقت ممكن.. وهكذا صار السائر في حي أول ماي إما أن يصادف محلا للأكل السريع أو متجرا للألبسة المستوردة لا محالة .. في تكرار ممل وكئيب.. وهذا دون الحديث عن غياب تام لمعايير النظافة والتغذية الصحية.. ودون الإطناب في الذين يضعون سلعهم على الأرصفة كيفما اتفق.. وهنا يطرح أكثر من سؤال فيما يتعلق بمنح الرخص وفرق المراقبة وجدوى المخططات البلدية والولائية للتنمية وللعمران ..

هذا عن حي أول ماي وقصته مع التحولات الاقتصادية والعمرانية.. أما عن علاقته مع السياسة فتلك حكاية طويلة.. فقد كان شاهدا حيا على كثير من الأحداث والمسيرات والمظاهرات التي كانت تنطلق منه لما يمثله من رمزية ولموقعه الاستراتيجي غير الاعتيادي.. فهو يتوسط العاصمة تماما..

وهو يمثل نقطة الالتقاء بين الأحياء التي كانت مخصصة للجزائريين كحي بلكور والعقيبة ومحي الدين والأفواج وبين تلك التي كانت فرنسية خالصة مثل ميسنوييه ولاريوش وديزليه وميشليه.. وهو يضم مقر المركزية النقابية ومستشفى مصطفى باشا المركزي.. والساحة الرئيسية بنفاورتها الشهيرة .. التي يمكن أن تشبّه بساحة التحرير المصرية..

ولهذه الأسباب كان الموقع المفضل الذي تنطلق منه مسيرات العمال في عيدهم السنوي.. والتظاهرات والمسابقات الرياضية في المناسبات الوطنية.. والأحزاب السياسية بمختلف مشاربها في مسيراتها واحتجاجتها التي لا تنتهي.. والإسلاميين في اعتصاماتهم وعصيانهم المدني.. وجموع المتظاهرين الناقمين في انتفاضة أكتوبر.. وصولا إلى مناصري العروش ومطالبهم سنة 2001.. تلك السنة التي عرفت منع المسيرات داخل العاصمة بعدما آلت إليه الأحداث.. إلى أن كسر حراك فبراير 2019 هذا الحظر معيدا إلى أول ماي رمزيته وعلاقته الحتمية مع السياسة ..

ولو قصرنا الحديث على الثمانينات فقط فإن الحي كان شاهدا على مدى تغير السياسات والعقليات وكيفية تعامل السلطة مع الحركات الشعبية والتحركات الشعوبية .. فتجمع أكثر من ثلاثة أشخاص في الساحات العامة كان يعتبر خرقا للقانون وقد يشكل خطرا على الأمن والسكينة في زمن الحزب الواحد.. ولم يكن يسمح به إلا في إطار مناسبات خاصة وضمن تنظيم محدد سلفا ولغرض التهليل والتطبيل للسلطة القائمة.. ليس إلا ..

غير أن انتفاضة أكتوبر88 غيّرت من أطراف المعادلة.. ونقلت الأمر من النقيض إلى النقيض.. إذ ومع فتح الباب أمام إنشاء الأحزاب السياسية وحرية التجمهر والتظاهر مضى زمن عرفت فيه ساحة أول ماي وفي نهاية كل أسبوع تقريبا مسيرة ما لجمعية ما أو تنظيم أو حزب ما.. حتى بات عدها مستحيلا .. وكأن الشعب كان يستدرك ما فاته في سنوات التضييق والمنع ..

وهكذا شأننا نحن الجزائريين في التعامل مع كثير من الأمور.. لا نعرف توسطا ولا وسطية.... إما أن نشارك في السياسة باندفاع ونملأ الملاعب والساحات والقاعات حتى تغص بنا وإما أن ننعزل عنها ونلعنها في السر والعلن.. كما حدث في التسعينات وما بعدها.. ذلك أننا لا نتناول الأشياء بموضوعية وهدوء وروية.. بل هي العاطفة الجارفة التي كثيرا ما أوردتنا المهالك ولا تزال..

وإذا تحدث حي أول ماي عن الثقافة فهو حديث ذو شجون.. فقد ساهمت القرارات الخاطئة لكثير من المسؤولين المحليين الناجمة عن غياب رؤية واضحة وتخطيط على المستوى البعيد في اندثار المكتبات ودور السينما ودور الشباب والمراكز الثقافية .. لأنها لم تكن أولوية عندهم.. فنتجت عن ذلك أجيال غير مثقفة ولا مؤدبة..

عود على بدء أقول.. إن حي أول ماي الذي يحمل مغامرات طفولتي وصبوتي وذكرياتها السعيدة والأليمة على المستوى الشخصي.. ربما أعطى - بحكم خصوصياته- صورة ولو بسيطة عن خيارات الدولة على المستوى الجماعي وعن سياستها واقتصادها واجتماعها وثقافتها على مستوى الأحياء.. وللأسف الشديد فإنها سياسة عقيمة مليئة بالفشل..

نحن لا نمجّد الاحتلال الفرنسي بل نستنكره ونمقته.. ونحن نعلم علم اليقين أن فرنسا بنت الأحياء البديعة لأبناء جلدتها حتى يتمتعوا بحياة رائقة شائقة.. ولكن التحليل الرصين يقول أيضا أنه وبعد الاستقلال لا نحن حافظنا على هذه الأحياء ولا نحن بنينا أحياء أحسن منها.. ولكننا تفننا في لوك الكلام وتحطيم كل ما هو جميل وأصيل..

فهلا اكتفينا ..

هل غيّر هبل أو مقام الشهيد وجه العاصمة ؟

أذكر أنه ومنذ زمن بعيد.. ركبت سيارة أجرة مرة رفقة سائق ملتحي.. وحينما ركب شخص ثان معنا سأله السائق عن وجهته فقال: مقام الشهيد.. فرد عليه السائق بل قل: هبل.. فأصر الراكب على قوله مقام الشهيد.. فما كان من سائق التاكسي إلا أن أمره بالنزول والبحث عن سيارة أخرى .. في مشهد عجيب ساخر..

كان هذا السجال معروفا ومألوفا حين افتتاح هذا المعلم الجديد سنة 1984 بسواعد كندية عملت فيه ثلاثة أعوام.. فالبعض من طبقات الشعب الكادحة كان يقول: هل تحتاج الجزائر حقا إلى بناء بهذه الضخامة والفخامة تصرف فيه الأموال الطائلة في وقت تقل فيه السلع والخدمات ؟ وهم الذين سموه بهبل.. والبعض الآخر كان يرى فيه رمزا يشير إلى الشهداء والثورة التحريرية ويطاول بل يفوق برج ايفل الفرنسي وهم الذين يطلقون عليه المقام.. والبعض الثالث كان يرى فيه مركزا تجاريا وثقافيا مخصصا لعلية القوم يتباهون فيه

ويتسابقون لشراء أغلى المنتجات كما هو شأن الدول المتقدمة.. وهؤلاء كانوا يسمونه ببساطة le monument ..

في الواقع يجب أن ينظر إلى هذا المقام ضمن سياقه الزمني وتوجهات الرئيس الشاذلي آنذاك.. لقد سبقت بدايات هذا المشروع زيارة تاريخية قام بها الرئيس الجزائري إلى باريس تلتها زيارة مماثلة من الرئيس الفرنسي.. وأتبع ذلك زيارات ومحادثات واتفاقيات كثيرة شملت عديد المجالات.. وكان الشاذلي متأثرا بالنموذج الفرنسي في العمران والبناء.. لاسيما أن العاصمة الجزائرية بدأت ومنذ الثمانينات تشكو الاكتظاظ وأزمة خانقة في السكن.. وما أشبه اليوم بالبارحة..

لقد كانت الأحياء الفرنسية حكرا على المستوطنين وحدهم وكانت عماراتها تتميز بالاتساع والفخامة.. خلافا للأحياء المخصصة للأندجين أي السكان الأصلين .. وحتى حينما حاول ديغول استمالة الشعب الجزائري في سنة 1958 بتبنيه لمشروع قسنطينة الشهير.. فإنه بنى عمارات متواضعة ذات غرف ضيقة وشرفات طويلة مرتبطة ببعضا ليكدس فيها السكان تكديسا .. وذلك أقصى ما استطاع توفيره..

وما إن هبت نسائم الاستقلال حتى سارع الحاذقون والعارفون باقتحام المساكن الفرنسية بعد أن فرّ أصحابها الأوربيين بالآلاف موقنين أنه لا مكان لهم في الجزائر المستقلة.. وقد عرفت هذه الظاهرة **بالزدمة** أي الاقتحام.. وكان سعيد الحظ من تحصل على مسكن ذي أربع أو خمس غرف.. بينما اكتفى البعض بمساكن الغرفة الواحدة ظنا منهم أن الجزائر ستبني العمارات الشاهقة التي ستفوق ما شيدته فرنسا بكثير.. إنها سذاجة الستينات..

بيد أن المقتحمين هؤلاء لم يتأقلموا تماما مع هذه السكنات التي كانت مكشوفة بصفة مبالغ فيها لأنها تعكس الثقافة الفرنسية المتفتحة .. فقد كانت النوافذ كبيرة والشرفات يطل بعضها على بعض فسارع السكان الجدد إلى تحويرها وتحويلها بما يناسب الحرمة على حساب التناغم العمراني.. كذلك كانت العائلات الجزائرية كثيرة العدد في مجملها.. عكس العائلات الفرنسية.. فلما تزايد الأبناء وكبروا وبلغ الكثير منهم سن الزواج ضاقت بهم هذه المساكن وأصبحوا يبحثون عن غيرها .. وكانت تلك بداية أزمة السكن والتي تمثل العاصمة ذروتها..

لقد فكّر الشاذلي في إنشاء عاصمة جديدة.. وبدأت الخطط والدراسات فعلا .. وشيدت الجزائر بعض الأحياء الجديدة بغرض توسيع العاصمة كما كان الحال في باريس.. أما عن العاصمة القديمة فقد أريد لها أن تصبح أكثر عصرية وتواكب النهضة العمرانية التي كانت موضة في ذلك الوقت.. وهنا جاء مشروع مركب رياض الفتح الذي اكتسح مناطق من أحياء المدنية العتيق .. وأزيلت عدة مساكن من حي بلكور وشيدت فيه ناطحات سحاب لأول مرة في تاريخ الجزائر.. وكان من المفترض أن يتوّج ذلك بأحياء مالية تضم بنوكا ووكالات تأمين وشركات مصرفية ومشروع لتوسيع وتحديث ميناء العاصمة وكذا مطار الجزائر الدولي ..

وإلى جانب هذا.. تم تبني فكرة المدينة الجديدة المتعددة المرافق التي تكون بعيدة عن العاصمة والتي سينقل إليها السكان المقتحمون القدماء.. بعقلياتهم غير الحضرية وربما غير المتحضرة أيضا.. حتى تصبح العاصمة الجديدة حكرا على أصحاب المستوى الدراسي المرموق والسلوك الذي يليق بالعواصم الكبرى..

كانت هذه أفكار فرنسية خالصة.. ناجمة عن تلك اللقاءات والمشاورات بين الشاذلي وميتران كما أسلفناه.. وكان مقام الشهيد أو هبل رمزا لهذا التصور الحديث للعاصمة على شاكلة برج ايفل الفرنسي.. وكم من المشاريع والقوانين والمفاهيم التي تم استنساخها عن النموذج الفرنسي ظنا من السلطات أنها ستساهم في الحداثة.. دون النظر إلى خصوصيات المجتمع الذي يفترض أن تعبر القوانين والتنظيمات عن حركيته وتطلعاته لا أن تفرض عليه فرضا..

المهم أن غالب المشاريع قد تعطل بفعل الأزمة البترولية وهشاشة الاقتصاد الوطني المبني على المحروقات لوحدها .. فلم ير مشروع العاصمة الجديدة النور أبدا.. وتعطل مشروع المدن الجديدة .. وبقي السكان القدماء في مواضعهم وتضاعف عددهم وانضاف إليهم الأبناء والأحفاد.. منتظرين ساعة الفرج.. وانضاف إليهم المتضررون من الإرهاب القادمين من الولايات المجاورة والذين بنوا مساكن قصديرية عشوائية.. فتشوه وجه العاصمة تماما.. وبدل أن تكون عاصمة الألفية الجديدة البيضاء .. صارت عاصمة قاتمة سوداء.. بمشاكلها ومعاناتها التي لا تنتهي.. واستغل بوتفليقة هذا الوضع لصالحه فوعد في بداية عهدته الأولى أن يحل مشكل السكن نهائيا وأن يخلص المحروسة من وجها البغيض .. ووعد ولم يوف أبدا..

لقد ظل مقام الشهيد يحتفظ برمزيته حين يلجأ إليه الرؤساء في الأعياد والمناسبات الوطنية بوضع الزهور والترحم على الشهداء.. واكتسب مع الوقت شهرة وقيمة جعلت منه علامة مميزة ومسجلة للبلاد.. كما حفظت متاحفه ماء الوجه بما تحمله من ذكريات ومخلفات لثورة التحرير المباركة والمقاومة الوطنية الباسلة ..

بينما فقد مركب رياض الفتح الكثير من بريقه.. فلم يعد قبلة للطبقات الراقية ولا دليلا على مستوى معيشي مرتفع .. فقد ظهرت أحياء وأماكن أخرى تعّبر عن الرفاه والترف.. وبغض النظر عن التظاهرات والمعارض التي يكون مسرحها.. فإنه بقي شاهدا على أحلام وطموحات جزائر الثمانينات.. سيقول البعض أن الأحلام فاقت الإمكانيات.. وسيقول البعض الآخر أن الظروف هي التي عاكست السياسات.. بينما أقول يزول الرجال وتبقى الفعال.. وللتاريخ الحكم ولنا الاعتبار..

ولكلٍ مقام ..

في كل ركن مكتبة..

قصتي مع الكتاب قديمة قديمة.. فأنا أذكر أول كتاب تحصلت عليه والتهمته التهاما.. كان جائزة تحصلت عليها سنة 1982 ويحمل عنوان " البستاني والأرنب".. ومن وقتها لم يعرف شغفي بالكتب فتورا..

لقد وجدت في الكتاب الأنس والجدة والفضول والمعلومة والمغامرة .. لقد وجدت فيه كل شيء.. وأذكر أنني كنت أفضل قراءة الكتب على المخيمات الصيفية التي يحبها الأطفال في مثل سني حبا جما.. ولم أك أذهب إليها إلا مرغما .. خاصة مع ضغوط الوالدة رحمة الله عليها التي كانت ترى في المحافظ والأدوات المدرسية والملابس التي نمنح إياها فرصة لا تعوض.. وقد كان ذلك حقيقا أن لا يرفض .. في زمن كان الحصول فيه على هذه الأشياء مجانا ضربا من الخيال..

وحتى وأنا متواجد في المخيم فإني كنت لا أفوّت حفظ العبارات والشعارات التي كانت تزين جدران الغرف التي كانت لنا مبيتا.. وسرعان ما كنت أستعملها في التعبير الكتابي فأنال الثناء والعلامة الكاملة ..

لقد كان الكتاب متوفرا بفضل سياسة الدولة الداعمة.. ولا زلت أذكر سلسلة "عباقرة خالدون" لصحابها محمد كامل حسن المحامي التي عرضت في صالون الكتاب بسعر زهيد والتي قرأت معظم أجزاءها وأنا لم أزل في الابتدائية.. لقد كانت تتحدث عن المتنبي وموزارت وهيلين كيلر والإسكندر الأكبر وإديسون وغيرهم كثير.. لقد كانت أمثال هذه السلسلات تمنح الطفل الذي كنته جودة التعبير ورنوق الوصف وحسن الانتقاء والسفر عبر الشخصيات والزمن.. وأذكر أول لقاءاتي بالمجلدات التي بدأت تغزو المكتبة العائلية في المنزل ومنها صحيح البخاري والترغيب والترهيب ورياض الصالحين وقصص الأنبياء.. لقد كان الكتاب متواجدا في كل ركن تقريبا..

كان لي ابن خالة يشارك في النشاطات الثقافية التي تقيمها مراكز ودور الشباب في العاصمة.. وكان مولوعا بالقراءة والكتب وكثيرا ما كنت أصطحبه إلى المكتبات التي كانت تعج بها أحياء العاصمة.. فكنا نبدأ السير من ساحة أول ماي مرورا بحي حسيبة بن بوعلي ثم شارع ديدوش مراد وبعدها النفق الجامعي وساحة البريد المركزي وصولا إلى باب عزون ومشارف ساحة الشهداء.. نقطع كل هذه المسافة مشيا .. وفي كل حي تجد مكتبتين أو ثلاثا على الأقل.. و كانت فرحتي لا تكاد توصف وأنا أتجول في أرجاء المكتبة فأقرأ العناوين وأتصفح الكتب وأجيل النظر وأطيله في الرفوف.. وتكتمل الفرحة حينما أتحصل على كتاب جديد أضعه في مكتبتي الخاصة.. أو هكذا كنت أطلق على طاولتي التي أرص فيها كتبي رصا..

أما في المدرسة فقد كنا نقوم بما يسمى بالمطالعة الموجهة مرتين في كل شهر.. وكانت الأستاذة تنتقي لنا قصصا عالمية ماتعة من سلسلة المكتبة الخضراء.. وكانت تقرأ علينا القصة تارة وتطلب منا تلخيصها فيما بعد.. وتارة أخرى تتوقف عن القراءة قبل نهاية القصة وتطلب منا إتمامها .. وهو ما كان ينّمي من قدرات التخيل والتعبير عندنا.. وكما قيل فالتخيل أقوى من المعرفة نفسها ..

وحينما صرت مواظبا على الصلاة في المسجد وقراءة الورد اليومي من القرآن وارتياد الحلقة الأسبوعية.. ساهم كل ذلك في مزيد من المطالعة ومزيد من التعلق بها.. فكانت القراءة في كل مكان.. في المنزل وفي المدرسة وفي المسجد وفي الشارع.. هذا إلى جانب تقليدي لكبار إخوتي الذين كانوا لا ينفكون عن الدراسة والمطالعة والمراجعة بحكم تواجدهم في الثانوية .. وكنت خير مقلد..

لقد أرسى فيّ هذا الجو القرائي- إن جاز التعبير- حب الكتابة منذ الصغر.. فكتبت أول قصة وأنا في سن التاسعة وكتبت جملة من القصائد أو هكذا بدا لي وأنا في العاشرة .. وزاد حضَ وتشجيع أستاذة اللغة العربية لي في الابتدائية حين أكتب المواضيع الإنشائية من هوسي بعالم الكتابة والمطالعة على حد سواء..

وقد كان هذا الزاد المعرفي والمخزون النفسي حافزا لأن أشارك في مسابقات القصة والشعر والمسرح حينما كنت في أواخر المرحلة الإعدادية وبداية المرحلة الثانوية.. وكانت لي صولات وجولات أيضا مع حصص المسابقات والأسئلة الثقافية التي كانت تبثها الإذاعية الوطنية والتي طالما حفّزت فيّ روح البحث والمثابرة للظفر بالإجابات الصحيحة.. بالرغم من جوائزها الرمزية البسيطة..

إنني حين أستذكر تلك الأيام سنوات الثمانينات وأقارنها بأوقاتنا الحاضرة ونحن على مشارف العقد الثالث من الألفية الثالثة أتساءل عن أسباب تراجع المقروئية بالرغم من توفر الكتاب ومصادر المعلومات المتنوعة..

صحيح أن التوجه الاشتراكي حينها كان يقتضي دعم الكتاب مما جعل الأسعار في متناول كل الشرائح والطبقات.. وصحيح أيضا أن المطابع التابعة للدولة ساهمت في وفرة الكتاب.. هذا إلى جانب كثرة المكتبات المتواجدة في كل الأحياء تقريبا .. ولكن هل يفسر تغير النهج الاقتصادي وحده بداية من التسعينات انخفاض مؤشر المقروئية وانحسار المستوى الثقافي حتى لدى طلاب الجامعات وحملة الشهادات؟

إنني أعتقد أن الأفكار هي التي تتحكم في عالم المادة وليس العكس.. خلافا لماركس الذي كتب أن الجانب الفكري ما هو إلا انعكاس للجانب المادي.. فتغير العقليات مع الانفتاح الاقتصادي صيّر تفكير الناس ماديا بحتا.. وبات أصحاب المكتبات يتخلون عن كتبهم ومكتباتهم مرغمين لقلة ذات اليد أو مدفوعين بحب الكسب السريع ليفسحوا المجال واسعا أمام ثقافة الأكل الجاهز.. إنها سياسة الأمر الواقع..

وإذا ما رمت الحصول على كتاب ما فلا بد أن تمشي المسافات البعيدة لعلك تظفر به في إحدى المكتبات التي نجت من مقصلة الإعدام الليبرالي المتوحش.. هذا إن حالفك الحظ والتوفيق.. وإلا عليك أن تنتظر الصالون الدولي للكتاب لتبحث عنه.. فإن وجدته تبقى أمامك مشكلة أخرى وهي الثمن الباهظ.. لاسيما إن كان مطبوعا طباعة فاخرة من قبل دار نشر أجنبية ومرموقة..

لقد انتشرت دور النشر والمطابع الخاصة وكسرت احتكار الدولة للكتاب.. غير أن القائمين عليها في الغالب يلبسون لباس التجار الذين لا يأبهون لثقافة ولا لمحتوى ولا لمستوى.. إنما همهم وشغلهم تحقيق الأرباح السريعة سرعة الرياح.. ويتعاملون مع الكتاب تعاملهم مع البطاطس والخضروات وهم أبعد الناس احتراما للكتاب والمثقفين والمفكرين.. وتلك طامة أخرى..

إن سنوات الفوضى الجنون التي تلت الثمانينات لا زالت تلقي بظلالها على كل المجالات.. ولحسن الحظ أن الكتاب لا ينطق وإلا لقال: بئس الجلساء في الأنام أنتم ..

هجرة الأدمغة .. المشكل القديم المتجدد

عُرض شريط في منتصف الثمانينات يتحدث عن ظاهرة " هجرة الأدمغة الجزائرية" نحو الخارج.. وكان المصطلح حينها جديدا ولافتا.. وخاصة بالنسبة لطفل في نهاية الطور الابتدائي بدأ يدرك أن بلاده تعاني كثيرا من المشاكل.. وصدق الرئيس الراحل الشاذلي بن جديد حين قال كلمته الشهيرة: " البلد الذي ليس فيه مشاكل ليس بلدا.. والحمد لله بلادنا ليست فيها مشاكل" ..

ولعله بذلك اختصر مشكلتنا من حيث لا يدري.. فمشكلتنا ربما أننا تعودنا المشاكل بحيث لا نستطيع العيش بدونها.. وإذا غابت عنا المشاكل أصبحنا في مشكل لأن بلدنا سيخلو من المشاكل وحينها لا يكون هذا البلد بلدا.. فهمتم ؟

بعيدا عن فلسفتنا الجزائرية هاته التي سيقف سقراط وأرباب المنطق أمامها حيارى أقول أن مشكل هجرة الأدمغة يجد جذوره في السياسة التعليمية التي انتهجتها الجزائر منذ الستينات والتي اقتضت فيما اقتضته مجانية التعليم ومحاربة الأمية وإفشاء التمدرس في صفوف الذكور والإناث وعلى كافة المستويات.. فكان هذا هو الهدف الأول منها وقد أدركته الجزائر بامتياز..

غير أنه وابتداءً من نهاية الستينات بدأت تطرح مشكلة الكيف بعد أن قطعت الجزائر أشواطا في مسألة الكم.. وقد صارت أعداد المدارس والمتمدرسين تستعمل لأغراض شعبوية بحتة في كل دخول مدرسي .. للتعبير عن نجاح البلد في مجال التعليم .. ولا زالت هذه الممارسات وللأسف الشديد قائمة إلى يومنا هذا.. فنسمع كل عام عن دخول الملايين من التلاميذ إلى الأقسام وعن نسب الأمية التي انخفضت وعن تدشين الابتدائيات والمتوسطات والثانويات.. بعيدا عن أي تقييم موضوعي للاستراتيجيات والتوجهات المستقبلية..

أقول لما طرحت مسألة الكيف والمناهج فقد اختارت السلطة حينها.. تقسيم الناجحين في شهادة التعليم الأساسي إلى فرعين: فرع عربي arabisant يدرس منتسبوه معظم المواد باللغة العربية وفرع مزدوج اللغة bilingue يدرس أصحابه معظم المواد باللغة الفرنسية.

وهكذا كان يوجه أصحاب الفرع الأول إلى التخصص الأدبي في الثانوية بينما يتوجه أصحاب الفرع الثاني إلى التخصصات العلمية.. مما مثّل حلا وسطا لإرضاء المنادين بالتعريب السريع وعلى كافة المستويات وبين أصحاب التوجه الفرنسي والمنافحين عن بقاء الفرنسية لغة للعلوم.. ولطالما كان التعليم ساحة للصراع والسجال الإيديولوجي بين الفريقين ولا يزال..

وكانت الجامعة آنذاك تقدم مستويات راقية للناجحين في شهادة البكالوريا وتخرّج إطارات طموحة وجاهزة لتقديم الأفضل.. غير أن الهوة كانت واسعة جدا بين أصحاب الشهادات وبين المسؤولين.. الذين كان معظمهم من غير شهادة وكان هؤلاء يجعلون من مناصبهم - والتي اكتسبوها بحكم الشرعية الثورية أو المحسوبية أو الوساطة – مرادفة للحياة نفسها.. وبالتالي كانوا يرفضون مجرد التفكير في التخلي عنها يوما ما.. وصاروا ينظرون إلى هؤلاء الشباب المثقفين بوصفهم ألد الأعداء.. لاسيما وأعدادهم تتزايد من سنة لأخرى..

فكانوا يمنونهم بسراب تسليم المشعل في وقت يبذلون الغالي والنفيس في سبيل تهميشهم وإقصائهم وإبعادهم عن مراكز القرار والنفوذ والتأثير إلا في النادر القليل..

أما عن المؤسسات الاقتصادية فكانت تعاني من البطالة المقنّعة التي تجمع في المكتب الواحد بدل الاثنين الخمسة وأكثر.. وكان المتخرجون حديثا يجدون أنفسهم قد شغلوا مناصب لا تمت إلى تخصصاتهم بصلة.. أو يقبعون في مكاتبهم يحلّون الكلمات المتقاطعة ويرتشفون القهوة في انتظار صلاحيات لا تأتي.. والمحظوظ منهم والحاصل على منصب رفيع.. كان يصطدم بمسؤول مصاب بجنون العظمة وهوس دائم من خطر فقدان المنصب وإحساس مرضي بضرورة تلجيم هذا الجامعي أو تقزيمه.. واكتشف الجامعيون حين اشتغلوا عالما غريبا من الولاءات والشيتات والمحسوبيات.. خاليا من أي معايير موضوعية لإعلاء الكفاءة وصاحبها .. وكان آخر اهتماماته تطوير المؤسسة أو رسم السياسة والإستراتيجية لإنجاحها مستقبلا..

وهكذا لم تأت بداية الثمانينات إلا وأدركت هذه الأجيال والتي تلتها أن الآفاق أمامهم مسدودة.. وأن بقاءهم في أمثال هذه المؤسسات يعني اضمحلال معارفهم وطموحاتهم.. وكان من حسن طالعهم أن فتحت الجزائر في عهد الشاذلي باب السفر إلى الخارج.. في وقت كانت فيه أمريكا وكندا وبعض الدول الأوربية في حاجة ماسة إلى كفاءاتهم وتقنياتهم.. فكانت الهجرة المتتابعة المتوالية..

ولما أفاقت السلطات متأخرة كعادتها .. صارت تناقش الظاهرة وأسبابها وعلاجها.. في الحصص والندوات والملتقيات دون الوصول إلى نتيجة تذكر.. بل أن الظاهرة تفاقمت من حينها لتتحول إلى هجرة الفئات المتعلمة وغير المتعلمة وتشمل الشباب والكهول والشيوخ والمراهقين والنساء فيما صار يعرف **بالحرقة**..

إن لي أخا غير شقيق هاجر إلى كندا بداية الثمانينات.. وأضحى بعدها خبيرا اقتصاديا مرموقا وصاحب كتب وكتابات يشار إليها بالبنان.. أتذكره يوم قرر أن يغادر الجزائر بغير رجعة.. كيف كان يعاني ماديا ونفسيا رغم كفاءته ونزاهته .. وبعد ثلاثين سنة من الغربة وفي إحدى اللقاءات سألته إحدى الصحفيات عن سبب عدم عودته إلى الجزائر فأجابها بما معناه: إن لي أكثر من عشرين مؤلفا فضلا عن المقالات العلمية في مجلات محّكمة .. ولو بقيت في الجزائر لما ألّفت كتابا واحدا.. ولربما كنت ألهث صباحا وراء كيس حليب قد أجده أو لا أجده.. وقد صدق..

إنه ومنذ الثمانينات نسمع نفس النغمة عن الاستفادة من خبرة الأدمغة الجزائرية المنتشرة في الخارج.. وهو حديث يذهب أدراج الرياح.. حينما نعلم أن أبسط الظروف المعيشية والاقتصادية لا توفر لهؤلاء.. بل إن منهم من حاول العودة إلى الجزائر لكنه لم يمكث إلا شهورا أو أعواما ثم عاد من حيث جاء على عجل ..

إن النظام التعليمي والجامعي لا يزال حبيس الحسابات والتوهمات ولا تزال المنظومة الاقتصادية ضعيفة هشة معتمدة على تقاسم وتقسيم الريع ولا تزال المؤسسات تطرد الكفاءات وتطاردها ولازالت المنظومة الاجتماعية بعيدة عن المستوى القاعدي للوعي.. لذلك فإن الأدمغة لن تعود في القارب العاجل.. خاصة إذا علمنا أن الجزائر ليست في حاجة إلى جائزة نوبل ولا إلى حاملها ..

كما قاله وزير ألمعي سابق..

الحلقة المسجدية ..الوعي المبكر

كان لي صديق في الابتدائية.. وكثيرا ما كنا نتناقش ونختلف في المسائل الدينية.. وكان في كل مرة يخبرني بأنه يستقي معلوماته من الحلقة المسجدية التي ينتسب إليها .. وكنت أتساءل في قرارة نفسي عن هذه الحلقة التي تخالف ما نتناوله من معارف في المدرسة وخصوصا في مادة التربية الإسلامية..

ولما كثرت هذه الاختلافات وبلغ فضولي مداه.. سألته إن كان بإمكاني الالتحاق بهذه الحلقة فوعدني خيرا.. وأذكر تماما يوم أن رافقته بعد صلاة المغرب ذات يوم من أيام سنة 1986 وانتظرت الرد من المرشد.. إذ كنا نسمي القائم عليها بهذا الاسم.. فهو مرشد حقا إلى الخير والعمل به.. وكم كانت فرحتي كبيرة حينما وافق.. خصوصا أنها كانت حلقة خاصة وليست مفتوحة للعامة..

لقد كانت الحلقة بالنسبة إليّ تجربة جديدة وفريدة.. كيف لا وقد بدأت أستمع إلى دروس في التفسير والفقه وعلم مصطلح الحديث وآيات الأحكام والتاريخ الإسلامي وفقه الدعوة وغيرها كثير.. وكنا نقرأ في مصادر مختلفة من القديم والحديث.. مما فتح عيني على عالم من الكتاب والعلماء والمفكرين من مختلف المشارب والمدارس كابن حجر وابن كثير وابن القيم والصابوني وسيد سابق والبيقوني ومحمد قطب وأمثالهم .. وكان هذا فتحا لي في مجال القراءة والبحث والجمع والمقارنة استفدت منه كثيرا في السنوات اللاحقة.. وكان لهذه الحلقة التي انتسبت إليها أعواما عديدة امتدت إلى ما بعد التخرج من الجامعة الأثر البالغ فيما أنا عليه الآن..

أذكر هذا وأنا أتمثل الحراك الثقافي والعلمي والديني الذي كان يملأ المساجد إبان الثمانينات.. فكنت تجد الحلقات العديدة منتشرة هنا وهناك.. وما كان عليك إلا الاختيار بينها والاستفادة مما يبثه شباب تحدوه الإرادة في النهوض بمستوى الوعي الديني والعلمي لمرتادي المساجد.. خصوصا بعد الركود والجمود الذي كان يميزها خلال السبعينات..

وكانت الحلقة التي انضممت إليها مثلا ليست مجرد مجلس علمي يدوم ساعة من الزمن وينقضي.. بل كانت مناسبة لعقد الصداقات وتوثيق المعارف والتكافل الاجتماعي.. وكنا نلعب المباريات في كرة القدم ونذهب في رحلات إلى البحر ونقيم المخيمات الصيفية.. لقد كانت بحق عائلة ثانية ..

وكم ساهمت أمثال تلك الحلقات في إنقاذ شباب من الآفات الاجتماعية وأخذت بأيديهم من أوحال الإدمان أو التسكع في الشوارع.. وكم ساهمت أيضا في إنماء الوعي ورفع المستويات الدراسية للبعض بما كانت تقدمه من دروس تقوية ودعم .. وكم شجعت على الروح العلمية بما كانت تنظمه من مسابقات فكرية وتربوية..

غير أنه ومع نهاية الثمانينات وإثر الانفتاح السياسي والتعدد الحزبي.. بدأت معالم تحولات جديدة تطرأ على المساجد والحلقات.. لقد ارتاد المساجد ملتزمون جدد.. سمتهم التعصب والتعجل والجمود وانعدام الأخلاق.. لقد كانوا يفرقون أكثر مما يجمعون.. ويطلقون الأحكام والصفات والألقاب دون علم ولا روية.. فصرنا نسمع: هذا سلفي وذاك صوفي والآخر طرقي وذانك فكري.. ولا تسمعوا لفلان واسمعوا لعلان.. وأضراب هذا من الأقوال المسمومة القاتلة..

لقد كان علمهم قليلا وعملهم أقل لكنهم كانوا في ازدياد وتكاثر كما تتكاثر الأمراض المعدية .. وصاروا يحتلون المحاريب والمنابر والمكتبات والدروس والحلقات.. وكان خطابهم عنيفا وسلوكهم عنيفا ولا يقبلون لرأيهم مخالفا.. وكان هذا نذير شؤم..

أذكر جيدا أن مرشدنا الذي كان يمتلك رؤية ثاقبة وفكرا راقيا حذرنا من مغبة إتباع أمثال هؤلاء.. خصوصا مع المد الجارف للمنتمين للجبهة الإسلامية للإنقاذ الذي كان يأخذ معه المراهقين والشباب وحتى بعض الكهول والشيوخ.. لقد كان هؤلاء يفكرون بقلوبهم وعواطفهم وكانوا يحكمون على مخالفيهم بالفسوق وبالكفر أحيانا .. ولست أنسى كيف أن إماما غرا لم تنبت اللحية على ذقنه أعلن في وقاحة أنه يكفّر الشيخ محفوظ نحناح رحمة الله عليه من على منبر الجمعة .. وقال: من لم يكن موافقا أو وجد في نفسه شيء فليغادر المسجد وليعلم أن جمعته ساقطة .. هكذا !!

أذكر أيضا أنه وبينما كنا نراجع الدروس في أحد المساجد التي كان يسيطر عليها أمثال هؤلاء.. جاءنا الإمام وسألنا عما كنا نفعل.. فلما أجبناه جن جنونه وقال لنا أن العلم هو ما قال الله ورسوله ولا يعترف أبدا بالعلوم الوضعية الدنيوية وأمرنا بمغادرة المسجد وهو يرغي ويزبد..

لقد كانت هذه التصرفات وأمثالها هي القاعدة الجديدة في المساجد.. وكان العاقلون يحذرون وينذرون لكن أصواتهم كانت غير مسموعة وتضيع وسط الصياح والصراخ وأساليب التهديد والوعيد التي يمارسها المتعجلون المتعجرفون..

لقد بدأت الحلقات العلمية والتربوية تقل وتقل.. لتترك المكان لدروس وخطب قائمة على انتقاد المسؤولين والسياسيين ومبشّرة بنصر متوهم قريب.. وبالاستيلاء على السلطة وعلى كل المناصب في الدولة.. وكان كل خطاب لا يوافق هذا الهوى يواجه ويجابه بسرعة.. ويوصف صاحبه بالموالي والعميل..

وكانت نتائج كل هذا السفه كارثية وعلى كل الأصعدة.. فقد كانت المواجهة بين أولئك المتعجلين المفندين وبين السلطة حتمية لا مفر منها.. وأتبعتها الاعتقالات والتضييقات والمتابعات والمحاكمات.. وكان ما كان من العشرية الدموية..

لقد اختفت الحلقات من المساجد.. وبات الرواد القدماء ما بين محبط ومنعزل ويائس ومتحسر على ضياع جهود سنوات من العطاء.. أما هاتيك الجماعات التي كانت تحتل الجوامع بالقوة وتملأها جهلا.. فكان منهم المفقود والموجوع والمسجون وتارك الصلوات والجماعات.. ومنهم من غيّر من جلده تماما وأضحى لا يمت إلى دين بصلة .. ولله في خلقه شؤون..

حينما أستذكر كل هذا أحمد الله أن اكتسبت وعيا مبكرا بفضل تلك الحلقة المسجدية والتي وقفت حصنا منيعا ضد فكر التطرف والضياع.. في وقت سقط فيه الكثيرون ممن كانوا أكثر رشدا وأكبر علما..

وتلك سنن الأيام والسنون .. تعلّم البعض بيد حانية ووخز لطيف .. وتضرب البعض الآخر بعصا غليظة قاسية..

فيتعظ العاقلون ويبقى الغافلون على غيهم إلى حين ..

البلاد الفاسدة: قصيدة طفل

لست شاعرا ولن أكونه.. قلت هذا في مقدمة كتاب لي يضم خواطر وكلمات منثورة وأخرى منظومة.. غير أنني أحب الشعر والشعراء ومن زمن قديم ..

لقد كان المتنبي أول الشعراء الذين تعرفت عليهم من خلال الكتب وأحببتهم جدا .. وقد ترك في نفسي أثرا لا يمحى.. كيف لا وهو مثال الفصاحة والبلاغة والأنفة والعزة والاعتداد بالنفس الذي قد يصل الغرور والنرجسية.. لكنه المتنبي على كل حال.. مالئ الدنيا وشاغل الناس.. وحينما تعرفت على شعراء آخرين من القدماء والمحدثين بعد ذلك.. من الصعاليك والجاهليين وصولا إلى شعراء المهجر والحداثيين.. بقيت مكانة المتنبي ثابتة لا تتغير .. ربما كان ذلك لأنه جزيرة وحده كما وصفه نزار قباني..

ومما زادني به إعجابا أنه كان ينتقد واقع العرب المرير في عصره وهو صغير يجوب أزقة الكوفة .. في انقسامهم وحروبهم بعضهم ضد بعض.. ولذلك تقلّب في الأرض يبحث عن الأمجاد الضائعة.. وما إن وجد في سيف الدولة مخايل البطولة والشهامة حتى راح يمدحه ويخلده في صحائف التاريخ.. وبخاصة في حروبه ضد الرومان..

وربما كنت أستحضر روح المتنبي هاته وأنا أخط كلمات سنة 1986 أحسبها شعرا في انتقاد وضع الجزائر وأسميتها البلاد الفاسدة .. نعم البلاد الفاسدة..

لعلي كنت حينها مبالغا أو متشائما أو متأثرا بما أسمعه وأراه.. لكن الأكيد أن هذا الإحساس الدفين والمتناقض بين حب الجزائر بلد الثورة والثروة.. وبين كره القائمين والمسؤولين عليه.. نما وتنامى ولم يزدد مع الأيام إلا وهجا واشتعالا..

علمت وأنا صغير أن البلد يعاني من أزمة السكن ومن أزمة التعليم وأزمة البطالة وأزمة الصحة وعايشت آثار الأزمة الاقتصادية ونقص المواد الغذائية وشهدت بداية هجرة الشباب والإطارات.. وكان من ضمنهم الإخوة الأشقاء وغير الأشقاء والجيران وأبناء الحي الذين قصدوا بلاد الشرق والغرب.. وكنت أشاهد الأفلام والحصص التلفزية التي تصف الوضع بالصعب وبالخطير..

تخيلوا مقدار الصدمة بالنسبة لطفل عاش في عالم جميل ملؤه التطور والازدهار ورغد العيش والعدالة والوطنية يجده في الكتب والمقررات المدرسية.. بينما يجد عالما آخر من الإحباط والتذمر والقلق والمشاكل التي لا تكاد تنتهي في الواقع المعيش..

لقد ترجمت هذه المشاعر في تلك القصيدة التي لا أذكر أبياتها ولكن أذكر معانيها التي تشكو فيها الجزائر من أبنائها وتترقب فيها غدا أفضل..

من عجيب الصدف أن كانت هذه القصيدة في سنة شهدت بدايات الأزمة الاقتصادية وخروج مبكر للفريق الوطني من الدور الأول لكأس افريقيا في مصر ومشاركة كارثية في كأس العالم لمكسيكو بعد مشاكل ومشاجرات بين اللاعبين والمدرب.. وغالبا ما كانت كرة القدم مخففة لبعض ما يجده الشعب من مصاعب وآلام.. ولكن ليس كل مرة تسلم الجرة.. وكأن تلك السنة كانت منبئة عن اتجاه الأمور نحو الأسوء وعلى جميع الأصعدة..

أذكر أيضا أن الإشاعات بدأت تنتشر عن اختلاس مبلغ 26 مليار دولار بطرق ملتوية على مدار سنوات .. وقد قيل أن طبقة ما استفادت من هذا الاختلاس وحولت أموالا وبنت عمائر في الجزائر وفي الخارج.. حتى أن هناك حيا راقيا من أحياء العاصمة سمّي بحي 26 مليار نسبة لأصحاب الفيلات الفاخرة التي تميّزه.. وكانت هذه إرهاصات الفساد.. بالرغم من أنه لا يقارن بحكاية الألف مليار دولار بعد ذلك بثلاثين سنة.. والتي غدت أسطورة ستتناقلها الأجيال بلا شك .. مما يجعل فساد الثمانينات يبدو أمام فساد زمن بوتفليقة كالنملة بجانب الفيل..

بعض النظر عن صحة تلك الأرقام التي كانت متداولة آنذاك.. لاسيما مع الصراعات التي غدت تعرفها أجنحة حزب جبهة التحرير الوطني بين تيار اشتراكي محافظ وآخر أقرب إلى الليبرالية والتي طفت إلى السطح إثر انتفاضة أكتوبر 1988 ... فإن التشاؤم بات السمة البارزة لشباب أواخر الثمانينات الذين صاروا يصفون البلاد **ببلاد الخرطي** (الأكاذيب).. **وبلاد ميكي** (نسبة إلى رسوم ميكي ماوس).. أو بعبارة أخرى أكثر بؤسا ويأسا.. **ماشي بلاد** (أي اللابلاد)..

كانت هذه العبارات وغيرها كثيرة التداول.. وبدأ الشباب يعبرون عن تمردهم وتذمرهم بشتى الطرق.. البعض وجد ملاذه في أغاني الراي التي كانت ممنوعة من الإذاعة.. والبعض وجد نفسه في الخطاب العنيف للإسلاميين الذين سيكوّنون نواة الجبهة الإسلامية للإنقاذ.. والبعض الثالث اتخذ من مدرجات الملاعب منصة لصب جام غضبه على كل ما يرمز إلى السلطة.. فيما اتخذ شباب آخر القرار الحاسم بالهجرة من غير رجعة..

كانت أجواء ما بعد ستة وثمانين توحي بفشل نظام.. وبخيارات خاطئة اتخذت منذ الاستقلال.. وربما كانت ردود أفعال الشباب هؤلاء طبيعية ومنطقية.. بالنظر إلى أن الأنظمة عموما تعرف هزات وأزمات دورية كل جيلين أو ثلاث.. وهو ما تعرفه مجتمعات الدول المتقدمة أيضا.. لكن الفرق يكمن في التعامل مع تلكم الأزمات وفي كيفية معالجتها أو تخفيف وطأتها ..

لقد واجه الرئيس ميتران في فرنسا وإبان نفس الفترة مشاكل مشابهة نظرا للظروف الداخلية والخارجية التي كانت تعاكسه.. لاسيما مع توجهه الاشتراكي.. في وقت كانت الاشتراكية

تلفظ أنفاسها الأخيرة.. وبالرغم من ذلك فإنه عرف كيف يتكيف مع الوضع.. حينما أقر مبدأ التعايش cohabitation مع رئيس حكومته جاك شيراك اليميني وصاحب الأغلبية في البرلمان.. في سابقة عرفتها السياسة الفرنسية.. مما سمح لمتران بالفوز بعهدة رئاسية ثانية سنة 1988.. حكم فيها سبع سنوات أخرى.. أما في جزائرنا فقد عرف الاحتقان مداه.. وانتهى الأمر بأحداث أكتوبر وبتوقيف المسار الانتخابي ثم بسنوات الإرهاب المجنون..

هل كانت البلاد فاسدة لحد لا يمكن فيه الإصلاح بحال..لا أظن.. لقد كانت الفرص متاحة لاستدراك الأمور ولتصحيح الأوضاع.. وقد حاولت حكومة حمروش بداية التسعينات القيام بإصلاحات عرفت بها.. غير أن الأمور أفلتت منها مع العصيان الذي أعلنته جبهة الإنقاذ في أسوأ سيناريو كان ممكنا.. وكأننا نتفنن في كل مرة في تضييع الفرص ثم نندم على الذي فات ونَحِّن إلى ماض نصفه بالأسود في حينه ثم نتغنى به ويغدو ورديا مقارنة بالحاضر.. هل تعلما الدرس؟ ..

حقا لا أدري..

انتفاضة الحجارة.. وحلم التحرير

يا جماهير الأرض المحتلة.. يا جماهير.. يا جماهير.. ثوري ثوري يا جماهير..

كانت تلك كلمات إحدى الأغاني والأناشيد الحماسية الكثيرة التي كانت تصدح بها إذاعة فلسطين من خلال أثير الإذاعة الجزائرية في الثمانينات.. والتي لازالت بعض ألحانها عالقة في الذهن..

كانت أيام عواطف جياشة وشعور غامر بحب فلسطين والفلسطينيين.. وأمل واسع بقرب النصر وبتحرير الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين كما كان يوصف..

ومن العجيب أن أشربنا ونحن صغار حب المقاومة الفلسطينية كما أشربنا حب الثورة الجزائرية سواء بسواء.. لعل مرد ذلك إلى حفظنا جميعا للعبارة الشهيرة **نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة** والتي أطلقها الرئيس هواري بومدين في السبعينات.. وربما لتعليمنا في المدارس أن الدول العربية كلها استقلت إلا فلسطين.. التي لا تزال ترزأ تحت الاحتلال الاسرائيلي.. أقول هذا قبل أن نتعرف على البعد الديني للموضوع وندرك إدراكا لا يعتريه شك بأن الصراع مع الصهيونية هو في الأول والأخير صراع عقائدي.. قد تنضاف إليه عوامل جيو سياسية ومصالح اقتصادية.. لكنها تبقى عوامل ثانوية مقارنه بالعنصر الأساس.. ولا يكاد عجبي ينقضي كيف أن يهود إسرائيل يلّقنون صغارا كره العرب والمسلمين بناء على تعاليم توراتية محرفة ومغلوطة.. ويعلّمون تاريخا ملفقا عن الوعود الإلهية لبني إسرائيل بالتفوق والانتصار على العرب ونيل الأرض المقدسة التي تمتد من الفرات إلى

النيل.. بينما نبحث نحن العرب عن نصر موهوم في قومية ضيقة أو في اشتراكية حالمة أو في شعارات زائفة .. ثم جاءت الانتفاضة..

كان مبتدؤها في نهاية سنة 1987 وعلى إثر دهس حافلة إسرائيلية لمجموعة من العمال الفلسطينيين.. وكانت القطرة التي أفاضت الكأس.. لقد ثار الفلسطينيون بالرغم من قلة الإمكانيات ومن الحصار ومن أساليب التهديد والتخويف والاعتقالات العشوائية والعنجهية الإسرائيلية..

لقد تخلص الفلسطينيون من كل هذه القيود والعقبات.. وقاوموا بما وجدوه .. الحجارة.. فكانت ثورة الحجارة المباركة .. جاءت في وقت لم ينتظره أحد.. وذلك شأن الثورات والتغييرات.. لقد ظن الإسرائيليون في فترة ما أنهم نجحوا في عزل الضفة الغربية وقطاع غزة عن باقي الأراضي الفلسطينية وأن الأمور قد استتبت وهدأت.. وأن الشعب الفلسطيني قد رضي استسلم ورضي بالأمر الواقع فإذا به يتمرد ويثور بلاشيء تقريبا..

ذكّرني هذا بمظاهرات 11 ديسمبر 1960 بالجزائر.. ففي وقت نجحت فيه قوات المظلين الفرنسية في تطويق العاصمة والقضاء على رؤوس المقاومة باستخدام أبشع الأساليب الوحشية وأشرسها بالقتل و التعذيب و التنكيل والسجن فيما عرف بمعركة الجزائر.. إذ بالشعب يخرج في مظاهرات عارمة لم يتوقعها أحد.. وكان لهذه المظاهرات الأثر الكبير في فك الحصار وفي توقيع اتفاقيات ايفيان ثم في وقف اطلاق النار وصولا إلى الاستقلال الوطني في الخامس من جويلية 1962..

إن الشعوب لما تنتفض عن قناعة ومبدأ يكون من الصعوبة بما كان صدّها أو ردها.. وحين تبلغ الأزمة منتهاها فلا بد من التفاوض والجلوس إلى طاولة الحوار..

لذلك فإن انتفاضة الحجارة مثلت بالنسبة للفلسطينيين وللعرب جميعا الأمل المفقود والنصر المنشود.. وكان لصور الأطفال وهو يواجهون الجنود الإسرائيليين المدججين بالسلاح بحجارتهم الصغيرة وقع كبير في النفوس.. وكانت هذه الصور تجوب أرجاء العالم مساهمة في إيصال أصوات المضطهدين الذين طالما عانوا من كبت أصواتهم وقمع آهاتهم.. ومنحت القوة العارمة لسكان غزة والضفة ونابلس والقدس للدفاع عن شرفهم وأرضهم موصلين رسالة إلى كل الفصائل الفلسطينية بأن طريق التحرر والتحرير يمر أبدا عبر المقاومة..

واستمرت الانتفاضة أعواما.. وكانت فرصة لميلاد وبروز حركة المقاومة الإسلامية حماس والتي كانت ولا زالت غصة في حلق المحتل الصهيوني.. وكانت سبيلا جيدا وفريدا لحسن تفاوض ياسر عرفات مع الحكومة الإسرائيلية من موقع قوة.. إذ أن كثرة المعارك والاشتباكات مع ما تمخض عنها من خسائر في الأرواح والممتلكات التي تكبدتها القوات الإسرائيلية.. زيادة على التكاليف في الأجهزة والمعدات والآلات الحربية لمواجهة تلك الانتفاضة.. كلها عوامل فرضت على الحكومة الإسرائيلية إعادة النظر في طريقتها لرؤية الأمور.. بعد أن كانت تعتقد أن الانتفاضة ما هي إلا ردة فعل عابرة لا تلبث أن يخبو لهيبها وتخف وطأتها مع مرور الأيام.. ولكن العكس تماما هو الذي حدث..

فقد أجبرت هذه الانتفاضة الإسرائيليين على الاعتراف بحق قيام دولة فلسطينية ولو كانت محدودة.. وأذكر جيدا يوم أن أعلنها ياسر عرفات مدوية على الملأ في تجمع بقاعة حرشة

بالعاصمة الجزائر.. غير أن الثمن كان باهضا من جهتين.. فمن جهة عدد القتلى والجرحى والمعطوبين الذين تجاوزوا الآلاف.. ومن جهة ثانية اعترفت السلطة الفلسطينية بحق إسرائيل في الوجود وهو ما لم يعلن عنه أمام جموع الحاضرين..

فقد كان الكل مشغولا بخطاب عرفات الحماسي الذي يوحي بتحقيق نصر مبين.. كيف لا وقد أجبرت الانتفاضة المحتل الإسرائيلي على الاعتراف بالسلطة الفلسطينية ممثلا شرعيا للشعب الفلسطيني.. لكنه كان اعترافا تكتيكيا ذكيا.. ففي المقابل نالت إسرائيل الاعتراف الذي كانت تبحث عنه منذ عقود.. وكان ذلك بداية لمفاوضات مع الدول العربية كل على حدة.. وانتهى الأمر باتفاقية مدريد ثم اتفاقية أوسلو واتفاقيات أخرى.. وهكذا أصبحت اتفاقيات كامب ديفد التي كانت سُبة في جبين النظام المصري في زمن مضى أمرا عاديا ومستساغا.. وأضحى الحديث عن التطبيع والتبرير له من أولويات المرحلة ومن ضروريات التأقلم مع النظام الدولي الجديد.. وصار عدو الأمس هو شريك اليوم في السلام..

غير أن هذا الشريك الإسرائيلي لم يرض عن التنازلات التي قدمتها السلطة الفلسطينية بالرغم من كثرتها.. وأصبح يبحث عن المزيد والمزيد.. لدرجة أنه هدد ياسر عرفات قي تصريحات مثيرة وغريبة.. كان من نتيجتها موت الزعيم الفلسطيني في ظروف غامضة..

لقد هدأت الانتفاضة بداية التسعينات.. ثم أتبعتها انتفاضة ثانية في بداية الألفية الثالثة وهدأت أيضا إلى حين.. وذلك دأب المقاومات ما تكاد تخبو حتى تعود من جديد.. إلى أن يتحقق التحرير الكامل والشامل..

وما ذلك على الله بعزيز..

أحداث أكتوبر .. القيرا بدات

كنت حينها في الثالثة عشرة من العمر.. وأدرس في صف الثامنة أساسي بمتوسطة علي مكي.. وإذا بنا نُخرَج من الأقسام ونُؤمر بالعودة إلى الديار.. وإلى أجل غير مسمى..

كانت المحلات كلها مغلقة.. وكان الجو كئيبا ومشحونا.. ويوحي بحدوث شيء ما لا ندري ما هو بالضبط.. وإن كانت ملامحه قد تبلوت طيلة الأسبوع..

لقد كان يوم أربعاء.. الخامس من شهر أكتوبر من سنة ثمان وثمانين.. وكان يتناهى إلى أسماعنا ومنذ يوم السبت أن **"القيرا"** ستنطلق نهاية الأسبوع لا محالة.. وهذا المصطلح هو تحريف لكلمة حرب guerre بالفرنسية.. وفيه دلالات وإيحاءات ويجد مرجعيته في حرب التحرير الوطني.. بل كانت الإشاعات تقول أن هذه الحرب ستطول وستطال كل شيء.. لذا تهافت الناس قبل الأحداث إلى تخزين ما أمكنهم من المواد الأساسية التي يحتاجونها في معاشهم اليومي..

هل كانت الأحداث مدبرة أم عفوية؟ سؤال لا زال يطرح بعد ثلاثين سنة ولا يجد إجابة قاطعة.. مثله مثل حراك فبراير 2019.. وقد يحتاج هذا السؤال إلى عقود أخرى لتظهر الحقائق.. إن ظهرت..

غير أن هناك مؤشرات شديدة الوضوح توحي بوجود تحضير ما من جناح ما في الدولة.. أول هذه المؤشرات هو خطاب الرئيس الشاذلي في أواخر سبتمبر من تلك السنة .. والذي كان فريدا من نوعه.. فقد كان خطاب معارض ومنتقد للأوضاع.. وقد أتبع مناقشات حادة في اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني بين مؤيد ومعارض لفكرة الانفتاح والتغيير..

ومؤشر آخر هو تحديد يوم الخامس من أكتوبر يوما للأحداث في أحاديث الناس.. وصار الأمر مسلما به وما كان ينقص سوى التحضير والانتظار.. والمؤشر الثالث هو الغياب الكامل والمريب لأعوان الشرطة في اليوم الأول من تلكم الأحداث.. وكأن أوامر وجهت إليهم بالانسحاب من الميدان..

أما المؤشر الآخر والأخطر.. أنه عند بداية المظاهرات والاحتجاجات التي كانت تبدو عشوائية كان هناك رجال في مقدمتها يقتحمون الأروقة والوزارات ومؤسسات الدولة ثم ينسحبون في هدوء..

أتذكر هذا المشهد جيدا.. لأن الناس وبالرغم من تذمرهم وتمردهم وبالرغم من غياب الشرطة أو الدرك فقد كان الرعب لا يزال يتملكهم مما أورثوه من ثقافة الحزب الواحد والبوليس السياسي والتجمعات الممنوعة والمراقبة الدائمة.. فكانوا لا يتجرؤون على التخريب أو الاقتحام.. حتى كان هؤلاء الرجال المجهولون هم الذين يفعلون.. وكأنهم بذلك يوجهون الجموع ويشجعونهم على إتمام الخطة المعدة سلفا..

ومما يؤكد هذا المؤشر الخطير.. هو تلك السيارات التي كانت تطلق الرصاص على الجموع على فترات متقطعة.. والتي لم يكشف عن هوية أصحابها أبدا.. حتى أن أكبر حصيلة من القتلى جاءت إثر إطلاق نار من مجهولين خلال مسيرة شهيرة نادى بها علي بلحاج من أحد مساجد العاصمة بالرغم من معارضة شيوخ آخرين أمثال الشيخ سحنون ومحفوظ نحناح.. وكانت النتائج وخيمة.. بعد أن رد أفراد الجيش بإطلاق رصاص عشوائي أصاب العشرات من الأشخاص.. وظل اللغز محيرا..

هذه المؤشرات وغيرها توحي بأن جناحا ما في أجهزة السلطة أراد فرض رأيه بالتخلص من الاشتراكية وأعبائها وبالتوجه القسري إلى الليرالية والسوق المفتوح.. ولما كان هذا الأمر متعذرا عن طريق الحزب.. تم إشراك الشعب واستعماله كأداة فاعلة قصد تعجيل المسار.. وكانت الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها الجزائر آنذاك الفتيل الذي أشعل النار فأتت على الأخضر واليابس..

ومن الغريب حقا أن مطالب الشعب كانت بسيطة وواضحة بضرورة توفير المواد الغذائية وإبعاد المفسدين .. ولم يكن يطالب بدستور جديد ولا بتعددية ولا بسقوط اشتراكية ..فتلك مطالب نخبوية بحتة.. بينما الذين تظاهروا كانوا أبعد ما يكونون عن هذه المثاليات النظرية.. لقد خرجوا كغيرهم من بؤساء العالم للحصول على لقمة العيش.. ولما وجدوا المجال أمامهم

فسيحا ومفتوحا.. فقد حصلوا على ما حملته أيديهم من السكر والزيت واللحم.. وأخذوا أيضا الملابس والأحذية الرياضية التي كانت باهضة الثمن..

وككل الثورات والانتفاضات التي يستفيد منها الأذكياء والانتهازيون.. فقد سارع الكل إلى الحديث باسم الشارع وإلى محاولة اختطاف مطالبه وتحويلها وتحويرها حسب التوجهات والإيديولوجيات.. فظهرت الأحزاب التي لا حصر لها من كل المشارب والأفكار..

ولكن الصراع كان منحصرا فعليا بين التيار الوطني المحافظ بقيادة جبهة التحرير و التيار الإسلامي المتطرف بقيادة جبهة الإنقاذ والتيار اليساري المتطرف أيضا وعلى رأسه حزب القوى الاشتراكية..

وبعد أن هدأت فورة أحداث أكتوبر وتم إقرار دستور جديد وتعددية سياسية وإعلامية كما كان متوقعا.. غدا التفكير في رسم خريطة سياسية جديدة تحاول إيجاد توازن بين هذه القوى الثلاث.. للتفرغ بعدها للإصلاحات الاقتصادية التي تم التمهيد لها بإقرار قانون استقلالية المؤسسات.. إذ شهدت سنة 1990 أكبر ترسانة قانونية عرفتها الجزائر منذ الاستقلال.. من قانون البلديات والولايات وقانون العمل وقانون القرض والنقد إلى قانون التعمير والبناء ولا زال الكثير منها ساريا إلى أيامنا هاته..

مما لا يدع مجالا للشك بأن أمثال هذه القوانين والتشريعات كانت معدة سلفا بحيث يستحيل إصدارها دفعة واحدة وفي بضعة شهور.. غير أن السيناريو لم يكن محبوكا كفاية فيما يبدو.. فقد استولت جبهة الإنقاذ على حصة الأسد من مقاعد البرلمان مما شكل خطرا كبيرا على التوازن الذي كان ينبغي أن يكون.. ولكن جرت رياح الانتخابات بما لم تشتهي سفن الحسابات.. فانقلبت الأمور رأسا على عقب.. واضطر الرئيس للاستقالة.. والباقي معروف..

ماذا تبقّى من انتفاضة أكتوبر؟ .. حينما يطول الزمن بالوقائع.. تختلف التحاليل وتتشعب وقد تحمّل الأحداث فوق ما تحتمل.. فالبعض جعل منها ربيعا عربيا والبعض الآخر مظاهرة والبعض الثالث وسمها بالمناورة .. لكن الأكيد أنها أنهت عشرية الثمانينات قبل الآوان..

لقد أنهت عهد الاشتراكية والأحادية.. وبدأت عهدا جديدا تغيرت معه المفاهيم والعقليات.. وكان ضره أكثر من نفعه.. بما حمله من شرور وآلام.. ربما لم تحسن لا السلطة ولا المعارضة الاستثمار في فرصة التغيير التي تلت أحداث أكتوبر وكانت الأخطاء قاتلة..

فهل سنتخطى أخطاء الماضي مستقبلا ؟ .. الزمن وحده كفيل بالإجابة ..

رياضة الثمانينات.. أو المجد الضائع

أذكر جيدا كيف كان أول عهدي بتتبع الرياضة وأخبارها..

لقد كان تشجيع فريق كروي تقليدا في كل العائلات.. وكان من حظي أن كنت أصغر إخوتي.. وما إن حان الوقت لأشجع فريقا حتى أدركت أن الفرق العاصمية القوية والمعروفة كانت محجوزة من أحدهم.. فشباب بلكور حينها كان من نصيب الأخ الأكبر ومولودية الجزائر للذي يليه واتحاد العاصمة للذي يليه.. وهكذا وجدت نفسي خالي الوفاض..

غير أنه سنة 1980 تحصل فريق يرتدي الأسود والأبيض على كأس الجزائر.. فأعجبني اللباس والتتويج.. فاخترت تشجيع وفاق سطيف ولا أزال..

لقد كانت البطولة الوطنية تعج بالنجوم.. وكان مستوى المقابلات رفيعا جدا.. لقد كان هذا نتاج الإصلاح الرياضي الذي اقتضى أن تقوم الشركات الوطنية بتمويل الفرق الرياضية فكان الاستقرار وكانت النتائج.. وتوّج فريق شبيبة تيزي وزو بالكأس الافريقية سنة 1980 وتحصل الوفاق السطايفي على نفس الكأس سنة 1987.. وشارك الفريق الوطني تواليا في منافسات كأس العالم سنتي 1982 و1986.. وتوج بكأس افريقيا سنة 1990..

أما في كرة اليد فقد سيطر الفريق الوطني على القارة بنيله كأس إفريقيا خمس مرات تواليا سنوات 1981 و1983 و1985 و1987 و1989.. وتحصلت الملاكمة الجزائرية على ميداليتين برونزيتين في أولمبياد لوس أنجلس سنة 1984.. إضافة إلى تألق رياضات فردية أخرى كالجيدو وألعاب القوى..

وبذا مثّلت الثمانينات العصر الذهبي للرياضة الجزائرية.. خلافا للتسعينات وما بعدها التي أفلت فيها الرياضة عموما فيما عدا إنجازات فردية هنا وهناك..

إن الجزائر بلد الرياضة منذ القديم.. ذلك أن الجزائري يملك بطبيعته إمكانات وخصائص طبيعية تمكنه من التفوق رياضيا.. وهذا أمر مسلّم به من الجميع.. غير أن الموهبة وحدها لا تكفي لتحقيق النتائج الباهرة..

لذا فمن الطبيعي أن تجد كثيرا من الفرق الإفريقية متفوقة على غيرها في الفئات الصغرى.. لكن ما إن تبلغ هذه الفرق مرحلة النضوج إلا ووجدت الفرق الأوربية قد حازت قصب السبق وتفوقت بمراحل.. ذلك أن عوامل كثيرة تساهم في النجاح الرياضي تجدها متوفرة في أوربا دون غيرها من البلدان..

من هذه العوامل المهمة هي السياسة الرياضية التي ترسمها الدولة ضمن غيرها من السياسات.. وهذه السياسة تتطلب تخطيطا من أكفاء وأموالا من مدراء وتنفيذا من خبراء ورقابة من رقباء.. وهو ما نفتقده ويا للأسف على كافة المستويات..

إن الجزائر ورثت من الاحتلال الفرنسي جملة من الهياكل الرياضية التي كانت تعتبر متقدمة بالنسبة لغيرها من الدول.. وبدل أن تستثمر الجزائر في هذه المنشآت وتحسنها وتبني غيرها متماشية مع التطورات السريعة التي تعرفها الرياضة كغيرها من المجالات.. فإن السلطات قامت بالعكس تماما.. فلا هي حافظت على هذه المكتسبات ولا هي شيّدت غيرها .. والقليل الذي تم إنشاؤه بعد الاستقلال فحّدث ما شئت عن نقص الصيانة والإهمال والتلاعب بالأموال.. وكانت النتيجة الحتمية هي التراجع في كل الرياضات تقريبا..

أذكر جيدا أن الجزائر لما نظّمت كأس إفريقيا في كرة القدم سنة 1990 فقد اعتمدت على ملعبين اثنين هما ملعب 5 جويلية بالعاصمة وملعب 19 ماي بعنابة.. ولما تقدمت لاحتضان كأس إفريقيا سنة 2017 فقد اعتمدت على نفس الملعبين وعلى ملاعب لما تزل في طور الإنجاز.. وكأن ساعة الزمن توقفت عندنا تماما .. ثم نتفاجأ من منشآت وملاعب مصر وتونس والمغرب حتى لا نذكر غيرها من الدول..

لعل هذا العامل النفسي عندنا عقبة كؤود في مسار التقدم الرياضي.. كيف لا وما إن نحقق انتصارا أو نتيجة مرضية إلا وبقينا عقودا ونحن نائمون نتنعم بالماضي المجيد فيما غيرنا يعمل ويتقدم ولا يكون استيقاظنا إلا على وقع هزيمة نكراء أو انتكاسة موجعة..

صحيح أن الجزائر مرّت بعشرية معقدة ومؤلمة أثرت على كل المجالات بما فيها الرياضة.. غير أننا لما أردنا إعادة القطار إلى السكة الصحيحة كان ذلك بطريقة سيئة.. متعجلة.. وغير مدروسة تماما..

لقد تبنت الجزائر احترافا ليس فيه من الاحتراف إلا الاسم.. فبعد أن تخلت الشركات عن الفرق وتركتها تسير نفسها بنفسها.. وبعد أن تخلى البلد عن الاشتراكية واتجه إلى اقتصاد سوق غير منظم ولا مهيكل..اختلط الحابل بالنابل ومع تدفق الأموال والمعونات والسبونسور دخل المجال الرياضي أشخاص غرباء لا يمتون إليه بصلة.. همهم التحايل على القوانين وجمع الأموال كيفما اتفق والاستفادة من الريع خاصة مع البحبوحة المالية وغياب الرقابة.. فكانت الطامة الكبرى..

لقد أصبحنا نسمع عن أموال طائلة تصرف.. وعن أندية تحت وطأة الديون تنزف.. أما النتائج والمستوى فباتا من أحلام الماضي السعيد.. ولقد شجع مناخ الرداءة والمحسوبية وثقافة اللاعقاب هؤلاء المسيرين على الاستمرار في استنزاف المزيد من الأموال العمومية كيف لا.. وقد أضحت الرياضة تجارة رابحة لا تعرف الكساد ولا الخسارة.. ولا يهم إن حقق الفريق نتائج سيئة أو سقط إلى درجات دنيا أو أفلس حتى .. مادامت الحصّالة ممتئلة..

لقد أفرز نظام بوتفليقة منظومة فساد هائلة طالت العقليات والسلوكات قبل أن تطال المؤسسات.. ولم تنج الرياضة من هذه الدوامة.. في حين أن الرياضة تبنى في الأساس على الأخلاق الفاضلة والروح الكريمة والتسامح والمنافسة الشريفة واحترام الخصم وتقبل النصر كما الهزيمة.. وحين تغيب هذه الأسس فلا تبحث عن نجاح ولا عن تتويج..

لقد وصل الاحتراف أو الانحراف على الأصح إلى نفق مظلم وطريق مسدود.. وأدركت السلطات بعد الهزة السياسية التي تبعت الحراك أن الاستمرار في هكذا سياسة هو ضرب من الجنون..

وأصبحت الحلول تطرح من هنا وهناك.. فمنهم من يقترح العودة إلى نظام الشركات الراعية.. بالرغم من أن هذه الشركات تحتاج هي إلى من يرعاها.. ومنهم من يدعو إلى تسقيف الأجور وضبط الأمور.. ومنهم من يدعو صراحة إلى التخلي عن الاحتراف والعودة إلى النظام الهاوي لقطع الطريق أمام الانتهازيين والمنتفعين..

الأمر يحتاج أولا وقبل كل شيء إلى أن يوسد لأهله أي أهل الرياضة.. فهم الأقدر والأجدر بطرح الحلول.. ثم يأتي المناخ السليم وتوفير الإمكانات والتخطيط والرقابة في إطار سياسة رياضية واضحة المعالم.. أما حديث النوستالجيا فسيبقينا في خانة " المهم المشاركة " ..

الاشتراكية الجزائرية .. الحلم المستحيل

" العمل والصرامة لضمان المستقبل" .. " من أجل حياة أفضل"..

شعاران من شعارات اشتراكية الثمانينات التي كنا نحفظها ونصدقها ونحن صغار.. كيف لا وقد كان جهاز التلفزيون الوحيد يصدح بأمثال هذه الشعارات ليل نهار.. بل وكان الأئمة التابعون للدولة في المساجد يفهموننا أن الاشتراكية هي من صميم الإسلام..

لقد تبنت الجزائر الاشتراكية خيارا بعد الاستقلال مباشرة.. وكان لهذا الخيار أسبابه وأعذاره.. فقد كان المحتل الفرنسي رأسماليا خالصا.. فكان من البديهي أن يختار النظام الجزائري التوجه المعاكس لمحتله السابق.. وزيادة على هذا فإن بن بلة - أول رئيس للجزائر بعد الاستقلال - كان يرى في نفسه زعيما على طريقة شوان لاي أو ماوتسي تونغ.. وكان يجد في الاشتراكية النموذج الأمثل لبسط هيمنته على كل أجهزة الدولة.. فقد سارع إلى إعداد دستور مفصّل على المقاس.. لم يستول فيه على كل الصلاحيات فحسب.. بل تماهت الدولة فيه مع شخصه.. في وقت كان فرحات عباس يحاول أن يعد دستورا يوازن فيه بين السلطات.. غير أن التجربة وئدت في مهدها وللأسف الشديد..

لقد كانت الاشتراكية في ذهن بن بلة مزيجا عجيبا يخلط بين القومية العربية على الطريقة المصرية والدكتاتورية على الطريقة الصينية والشعبوية المفرطة على الطريقة الجزائرية.. وخير مثال لذلك صندوق التضامن الذي ساهم فيه الجزائريون بكل ما أوتوا من مال وقوة وكذا قانون التسيير الذاتي للممتلكات.. وكان من آخر اختراعاته تشكيل ميليشيات مسلحة تضاهي قوة الجيش ليكسر شوكة وزير الدفاع بومدين.. الذي تفطن للأمر وعجّل بانقلاب عسكري أنهى اشتراكية مجنونة غير واضحة المعالم ولا العواقب..

أما اشتراكية بومدين فكانت تبدو أكثر نضجا.. فقد حاول الرجل أن يجعل من الجزائر قوة إقليمية معتمدة على ثمار ثورات ثلاث: صناعية وزراعية وثقافية.. ففي الصناعة أنشأت الجزائر مصانع ضخمة حتى تتخلص من التبعية مستقبلا وتؤسس لاقتصاد قوي.. وفي الزراعة قامت بتأميم الأراضي وجعل الفلاحين بمثابة موظفين لدى الدولة.. وفي الجانب الثقافي أرادت أن تبقي اللغة الفرنسية كغنيمة حرب وتتبنى تعريبا تدريجيا..

غير أن الثورات الثلاث لم تعرف النجاح الذي كان منتظرا منها لأسباب عديدة لعل من أهمها الاتكالية التي أصبحت تميز العقلية الجزائرية بفعل تلك الاشتراكية الشعبوية.. حتى أضحى العامل كما الفلاح لا يبحث عن إتقان أو إبداع في عمله .. بل همه الوحيد انتظار أجرته الشهرية وإن أمكنه التنصل من أبسط المهام الموكلة إليه فذلك أفضل.. وهكذا تغافلت تلك الاشتراكية عن الاستثمار في الإنسان قبل أن تستثمر في المادة..

وحين قدوم الشاذلي فإنه حاول أن يتخلص شيئا فشيئا من مخلفات العهد البومدييني.. فبدأ بتقسيم المؤسسات والشركات الكبيرة إلى فروع أصغر منها ليتحكم في تسييرها بشكل أفضل.. فكانت سوناكوم وسونالغاز وسوناتيبا وسوناترو .. حتى قيل ça sona de partout أي بما معناه: نسمع الرنين في كل مكان.. إشارة إلى كلمة السونا التي تشكل اسم المؤسسات..

وحين نعلم أن مصنعا ضخما كالحجار الذي كان الأول في إفريقيا لم يشتغل بطاقته القصوى أبدا وحين نعلم أن تكاليف الصيانة كانت تتجاوز أحيانا المداخيل.. ندرك حجم الأعباء التي صارت تثقل كاهل الخزينة العمومية والتي لم تستطع التخلص منها أبدا مع مرور العقود..

كما حاول الشاذلي إيجاد نموذج جديد في التسيير قائم على المرونة والفعالية يكون فيه المسؤول أقرب إلى المنسق منه إلى الزعيم الذي يحيط بكل شيء علما.. غير أن العقلية الجزائرية التي تعوّدت على الأبوية رفضت هذا النموذج ولا تزال.. فهي تمقت الحقرة والقمع ولكنها تعودت في الوقت نفسه على التملق والخنوع للمسؤول.. وهذه العقلية ألفت أن تعمل لأجل المراقبة الصارمة على طريقة رئيس العمال المتغطرس القابض بيد من حديد.. فإذا ما أحست فتورا أو تساهلا عمدت إلى التكاسل والاستخفاف والتظاهر(التفياس) .. وهذه العقلية السلبية البائسة لازالت سارية في كثير من المؤسسات بالرغم من المرور إلى اقتصاد السوق ومنذ عقود..

وقد تصور الشاذلي أيضا أن توفير الحياة الأفضل بالسماح باستيراد بعض السلع التي كانت تعد كمالية فيما مضى – كالموز والكيوي- وبانفتاح محدود على الخارج.. تصور أنه سيكسب شعبية معينة قد تتيح له الاستمرار في هذه الاشتراكية المعتدلة.. غير أنه لم يتسن له بلوغ كاريزما بومدين رغم دكتاتوريته.. ولم يكسب الشعبية المرجوة بقدر ما فتح عيون الشعب أكثر على الثقافة الاستهلاكية البحتة.. وعليه كانت تلك الخيارات لها مخاطرها العديدة والبعيدة .. كما تبين فيما بعد.. إذ لم تأخذ بعين الاعتبار- وكالعادة - العقلية الجزائرية الخاصة جدا..

إذاً فالاشتراكية على الطريقة الجزائرية كانت فشلا ذريعا على كل المستويات.. ابتداء من الستينات وصولا إلى نهاية الثمانينات.. رغم اختلاف النماذج والمناهج..

وهذه النقطة تحديدا هي لب الموضوع ومربط الفرس كما يقال.. فهناك مشكلة خطيرة في تركيبتنا الذهنية تقتضي أن نبحث عن الحلول السهلة والجاهزة دائما.. فحين كنا اشتراكيين لفقنا بين النموذج السوفيتي والصيني والكوري الشمالي واليوغسلافي والألماني الشرقي .. وغيرها كثير.. وحين ولينا وجوهنا نحو قبلة الليبرالية.. أصبحنا نتحدث عن النموذج الفرنسي والأنجلوساكسوني والإسكندنافي .. إلى غاية النموذج التركي والماليزي الآن..

وأغفلنا أن النموذج في حد ذاته كما القانون يفترض أن ينبع من صميم المجتمع.. آخذا بعين الاعتبار خصائصه ومقوماته ومتطلباته.. في حين أننا نفشل ونتفنن في تكرار الفشل حين نستورد نموذجا ما.. ونحاول تطبيقه قسرا على واقع مختلف وبأدوات مغايرة وحين تتمخض النتيجة الحتمية نصاب بالذهول والدهشة ونقول: لماذا لم ينجح النموذج يا ترى؟ وبدل استخلاص العبر والدروس.. نروح نبحث عن نموذج جديد.. وهكذا..

افترضت الاشتراكية المساواة بين الطبقات وتثمين دور العمال والفلاحين – أو البروليتاريا كما هو المصطلح العلمي- وتوفير السكن المجاني والصحة المجانية والتعليم المجاني أيضا.. مع امتلاك الدولة للمؤسسات والشركات العمومية وتدعيمها قصد تحقيق التنمية من جهة وتوفير العيش الكريم للمواطن والقضاء على البطالة والأمية والتبعية ..

نظرة حالمة.. ومثالية تقترب إلى الطوبوية .. لم يتحقق منها إلا القليل.. بل صارت عبئا ثقيلا مع مرور السنوات أثقل كاهل الدولة الداعمة وعوّد المواطن على الكسل والخمول والتحايل لأجل الحصول على أكثر قدر من الحقوق دون قيامه بأدنى الواجبات..

ومع نهاية الثمانينات.. وأزمة التسعينات.. ضاع العمل وغابت الصرامة وصارت الحياة أسوأ.. وأضحى المستقبل شبحا مخيفا.. وصدقت مقولة أحدهم حين قال: سيسجل التاريخ أننا جيل لم يتحقق في حياته شعار واحد..

التعددية الحزبية.. والفوضى السياسية

كنّا ندرس ونحن في المرحلة المتوسطة ضمن دروس التربية المدنية أجهزة الحزب الواحد.. حزب جبهة التحرير الوطني.. من اللجنة المركزية والمكتب السياسي واللجان المختلفة وصولا إلى القسمة.. الخلية الأساسية على المستوى المحلي..

كان هذا التعليم يندرج في إطار ترسيخ الوعي السياسي المبكر لدى الأجيال الصاعدة كما هو الحال لدى الأنظمة الأحادية.. والتي كانت ترى في الأطفال والفتيان مجرد وعاء يملأ بإيديولوجية قائمة على تقديس الاشتراكية وتكريس فضائل الحزب الواحد الذي قام بالثورة إبان الاحتلال وقاد مسيرة التنمية بعد الاستقلال.. لتجد بذلك السلطة الحاكمة هؤلاء الشباب حين يبلغون سن الرشد القانونية جاهزين للانضمام إلى صفوف الحزب -وخاصة البارزين منهم- ومبرمجين سلفا لتلقي الأوامر السديدة من السلطات الرشيدة.. دونما نقاش ولا تلكؤ..

إن المتأمل في هذه النظرية السياسية الحالمة التي لا تأخذ بعين الاعتبار إمكانية اختلاف وجهات النظر التي هي من طبيعة البشر.. يعتقد أن الجزائر لم تعرف من قبل تعددية حزبية ولا حياة سياسية.. والأمر ليس كذلك على الإطلاق ..

إن الجزائر كانت تمتلك طبقة سياسية راقية خلال الثلاثينات والأربعينات.. وعرفت تنوعا في المشارب والتوجهات.. فكنت تجد التيار الإسلامي وعلى رأسه ابن باديس والتيار الإدماجي بقيادة فرحات عباس والتيار الوطني بزعامة مصالي الحاج والتيار الشيوعي.. وكانت التفاعلات والتجاذبات بين مكوّنات الطبقة السياسية تساهم في تنامي الوعي السياسي لدى الجزائري آنذاك.. ذلك الوعي الذي سمح تراكمه بتفجير الثورة الجزائرية في الخمسينات..

لقد اختار مفجّروا الثورة تكوين جبهة تنصهر في بوتقتها كل التيارات وتؤجل في ظلها الخلافات – إلى حين- لأجل هدف واحد وهو التحرير الكامل للتراب الوطني من الاحتلال..

وتحقق الهدف.. صحيح أن الثمن كان باهضا ودفع الشعب فلذات أكباده في حرب تحريرية لم يشهد لها العالم مثيلا .. إلا أن كل شيء يهون في سبيل استرجاع الحرية والكرامة المسلوبتين منذ قرن ونيف في مرحلة أولى.. ثم بناء الدولة التي حلم بها الشهداء القائمة على المبادئ الإسلامية والعدالة الاجتماعية والتنوع الفكري والسياسي في مرحلة تالية..

غير أن تبني النظام لمبدأ الأحادية السياسية والفكرية والاقتصادية مباشرة بعد الاستقلال بحكم عوامل متشابكة كما بيّناه في فصل سابق.. قد ساهم في تأجيل دائم للعودة إلى الحياة السياسية العادية التي سبقت حرب التحرير.. واستمر ذلك قرابة ربع قرن إلى غاية انفجار أكتوبر 1988.. هنا فتحت السلطة الأبواب على مصراعيها لتكوين الأحزاب من مختلف المشارب والمنابع.. سواء امتلكت برامج ورؤى واضحة أم كانت مجرد نزوة عابرة أو اتباعا لموضة سائرة.. وأذكر هاهنا أن ممثلا معروفا في الثمانينات كانت قد استهوته فكرة إنشاء حزب على غرار ما فعله غيره من السياسيين والإعلاميين والكتاب والأئمة والدعاة

والبطالين والمشهورين والمغمورين.. فلما لا يكون للفنانين نصيب من هذا الكرنفال.. المهم أن صاحبنا وبعد أن عقد ندوة صحفية وشعر بسكرة السلطة تقترب منه.. دعا أصدقاءه الفنانين المقربين إلى مأدبة غداء معتبرة في أحد المطاعم العاصمية الفاخرة.. وطلب منهم أن يبتعدوا عنه من الآن فصاعدا لأن مكانته الاجتماعية الجديدة لا تسمح له بمقابلة أمثالهم.. في مشهد كوميدي مضحك ومعبر.. ولقد اعترف الفنان بعدها بسنوات أن تلك كانت سذاجة الشباب..

لم يكن هذا المثال معزولا ولا شاذا.. بل كان من أمثال هذا الفنان الكثيرون.. الذين ظنوا أن هذا الانفتاح السياسي سيجعلهم يقفزون إلى الواجهة في لحظة فارقة.. وينالون المناصب السامية التي طالما حرموا منها لأنها كانت حكرا على مناضلي جبهة التحرير الوطني.. غافلين عن أن قواعد اللعبة السياسية أعقد بكثير.. ولعلهم اغتروا كغيرهم بتلك الجموع الضخمة التي كانت تملأ القاعات وتمشي في المسيرات بدافع الفضول أو التعطش للتعبير أو الانتقام من نظام سابق .. غير أن الكثرة لوحدها لم تكن أبدا معيارا للوعي.. وكم كانت جزائر الثمانينات تحتاج إلى وعي الثلاثينات والأربعينات..

صحيح أن بعض النخب السياسية آنذاك كانت ذات وعي عميق وتمرس سياسي ولا شك.. من أمثال عبد الحميد مهري وآيت أحمد ويوسف بن خدة ومحفوظ نحناح وغيرهم.. إلا أن الغوغائية المفرطة والفوضى غير الخلاقة كانت أكبر من أن تدع أمثال هؤلاء يهذّبون ما في الساحة من عشوائية غير محمودة العواقب.. وكان أي خطاب موضوعي أو نقد علمي يضيع وسط الخطابات الشعبوية والتجييشات العاطفية.. بالإضافة إلى الاتهامات المجانية والجاهزة بالعمالة والخيانة والموالاة للسلطة.. لكل من يشتم منه خطاب عقلاني مخالف أو تحليل هادئ أو هادف..

وأذكر مثلا أن حصة في لقاء الصحافة والتي كانت تستضيف رؤساء الأحزاب ليعرضوا برامجهم وليواجهوا أسئلة الإعلاميين.. كثيرا ما كانوا يستدرجون إلى معارك وهمية ونقاشات بيزنطية.. الهدف الواضح منها أن يُبث في ذهن المشاهد أن الأحزاب برمتها ومهما اختلفت مشاربها ومذاهبها هي مجرد عرائس من شمع لا لسان لها صادح ولا برنامج واضح .. ولا يمكن بحال أن تكون بديلا للحزب العتيد..

ويذكّرني هذا بما تفعله بعض القنوات الخاصة في أيامنا هاته أي بعد ثلاثة عقود كاملة من عقد الثمانينات.. حيث أنها تعمد إلى بعض البرلمانيين التي تنتقيهم انتقاء وتطرح عليهم أسئلة سياسية أو ثقافية من أمثال: ماذا تعرف عن قانون المالية؟ ما آخر كتاب قرأته ؟ وتبرز الإجابات المضحكة والهزلية.. حتى تظهر العضو البرلماني المنتخب من الشعب بمظهر السفيه التافه.. وقد ذكر لي أحد البرلمانيين أنه لما وجّه له صحفي غر هذا السؤال.. أجابه بأنه يقرأ في كتاب مفكر سياسي فرنسي من مفكري القرن الثامن عشر ثم بادره بالسؤال قائلا: هل تعرفه؟ فبهت ذلك الصحفي وفرّ هاربا.. إنها نفس الممارسات وإنما اختلفت الأساليب فحسب..

لقد كانت التعددية الحزبية آنذاك فرصة في الظاهر للتعبير عن المكنونات واسترجاعا لبعض رونق الاختلاف في وجهات النظر بين الرأي والرأي الآخر وخروجا من الأحادية الفكرية والسياسية التي فرضتها الاشتراكية فرضا.. ولكنها كانت مفاجئة وسريعة وفوضوية.. لذا فإن نتائجها كانت وبالا على الجميع.. فكره الناس السياسة والأحزاب وألفوا المقاطعة والاستقالة

من كل الأنشطة السياسية وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء.. مما أفرز نخبا انتهازية ووصولية لا تملك مبدأ ولا تعرف من النضال إلا ما كان يصب في مصالحها الخاصة والضيقة.. وضاعت كل قيمة جميلة قد تكون أفرزتها مرحلة ما بعد أكتوبر.. فهل كان بالإمكان أفضل مما كان؟

الجواب نعم بكل تأكيد.. فلو كان المرور إلى التعددية مدروسا ومنظما ومتدرجا ووفق دفتر شروط واضح المعالم كما حدث في بلدان أخرى.. لكان الانتقال سلسا ومثمرا على أكثر من صعيد.. ولكانت تجربة رائدة بمقاييس تلك الحقبة.. لكنها غدت فرصة ضائعة أخرى .. وما أكثر ما أضاعت الجزائر من فرص.. لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

الرصيف الجديد.. قصة فساد

لازلت أذكر جيدا الأرصفة التي ورثناها من العهد الاستعماري.. لقد كانت عبارة عن قطع مستطيلة طويلة وسميكة بما يسمى le pavé.. لونها رمادي.. وتتميز بصلابة عالية.. كيف لا وقد صمدت ومنذ الخمسينات إلى غاية نهاية الثمانينات..

كما أذكر جيدا وحين كنت في الابتدائية كيف نزعت هذه الأرصفة لأول مرة.. وتزامن ذلك مع بدايات استقلالية البلديات عن الحزب الواحد.. ومن العجيب أن تلك الأرصفة كانت لازالت صالحة للاستعمال.. وعمرها الافتراضي لا يزال أمامه سنوات أخرى.. لكن الحجة حينها كانت تحديث الأحياء وجعل الأرصفة أكثر جمالا وبهاء ومتماشية مع عملية إعادة دهن الأحياء وتحسينها قصد إعطاء وجه جديد للعاصمة.. في انتظار استكمال مشروع العاصمة الجديدة الذي أشرنا إليه فيما سبق..

غير أنه لا مشروع العاصمة الجديدة رأى النور.. ولا الأرصفة الجديدة استكملت عاما واحدا وهي سليمة.. فكانت تلك بداية سلسلة طويلة من النزع واللصق لأرصفة حمراء وصفراء وبيضاء وزرقاء وما شئت من الألوان.. ومن أشكال مربعة ومستطيلة ومثلثة أحيانا.. مع كثير من اللاانسجام والتلوث البصري والهشاشة المخزية..

لقد اعتقدت كغيري في بادئ هذه الظاهرة أن الأمر لا يعدو على خيارات خاطئة وخبرة محدودة.. لكن لما صارت المسألة متكررة ومقصودة ومنكرة.. علمنا أن الرصيف صار رمزا من رموز الفساد على مستوى الجماعات المحلية.. لا سيما مع قرب زوال الاشتراكية وبروز المقاولين الجدد أو إن شئت فقل الأثرياء الجدد..

لقد غدت مسألة تغيير الرصيف سنويا عملية مدرة للربح السهل والسريع للكل.. إنها تمثّل مغارة علي بابا المفتوحة للجميع.. يتم إقرارها في ميزانية البلدية دون نقاش ودراسة جدوى.. ثم تختار أردأ النوعيات إن أمكن.. ويختار المقاول الذي دفع أكبر قدر من الرشاوى.. والذي سيسترجع أضعاف ما دفع حين يغش في الكميات وفي النوعية.. وحين يضخم الفواتير بمعية الممونين.. وبتواطؤ مع المراقبين التقنين المنتمين للجماعات المحلية.. الذين ينالون نصيبهم من الكعكة.. ولا يمر عام على هذه العملية المتقنة في الفساد وغير المتقنة في العمل.. حتى يعاد إدراج عملية جديدة لتهيئة الأرصفة بحجة تكسر الرصيف القديم بسبب الأمطار أو

الحرارة الشديدة أو كثرة المارين أو إعطاء شكل جديد للبلدية .. أو غيرها من الحجج الواهية التي لا تنتهي..

أضف إلى كل ذلك تلك الحجة الشهيرة.. ألا وهي استكمال الميزانية السنوية المخصصة للبلدية.. التي في حال عدم استعمالها كلية فإن السلطات المركزية ستقوم بتخفيضها العام المقبل.. وذلك مبدأ معروف لدى المتمرسين في الميزانية.. ولطالما جرّ الويلات على تسيير المجالس البلدية والولائية على حد سواء..

والطريف في الأمر أن جرارا أخرى من المال السهل والوفير انضافت إلى جرة الأرصفة.. فصار تزفيت الطرق وتجديد الدهن وتشييد النافورات وتهيئة الساحات عمليات تثير اللعاب كل سنة وتتهافت عليها كل الأطراف.. ناهيك عن المحلات والمقاولات الزائفة..

لقد فتح عهد التعددية واقتصاد السوق صفحة سوداء أخرجت أسوأ ما في جعبة المسيرين والإداريين والمنتخبين على حد سواء.. فقد فهم الكثير منهم أن التوجه الجديد يقتضي غياب الرقابة وغياب التخطيط وغياب الإحصاء وغياب المحاسبة والتدقيق.. فكان الأمر أقرب إلى سوق فوضوي وليس اقتصاد سوق منظم ..

وهكذا وكما قلناه سالفا فإنه بنفس الطريقة التي أسأنا بها فهم الاشتراكية وتطبيقها.. كذلك أسأنا فهم الليبرالية وتطبيقها.. فأخذنا أسوأ ما في الاشتراكية من تخاذل وتكاسل وخمول وبطالة مقنعة.. وأسوأ ما في الليبرالية من جشع وطمع وفساد وغش وتدليس واستغلال .. وهلم جرا..

وهذه الممارسات المريضة تحتاج في الحقيقة إلى دراسات نفسية وسوسيو-ثقافية عميقة لتحليل مدى فشل هذه النماذج وأسباب ذلك.. وحسبي أن أسجل هنا أن المسيرين المحليين في العهد الاشتراكي كان يفرض عليهم أن يكونوا منخرطين في الحزب الواحد فرضا.. حتى يتاح لهم تقلد المناصب كما نصت عليه القوانين آنذاك، وبالرغم من منطق الولاء والطابع الشعبوي الذي طالما ميّز ذلك النمط من التسيير، فإن الفساد كان قليلا أو هكذا كان يبدو.. مقارنة بما سيتلوه من أمواج متلاطمة من الفساد..

وربما كان مرد ذلك للتخطيط المركزي للدولة الذي لم يكن يسمح بوفرة الموارد المالية.. إلى جانب الرقابة الداخلية للحزب التي مثلت نوعا من أنواع الردع.. لاسيما أن السمعة السيئة التي قد تصاحب المترشحين ستسهم في سقوطهم من القوائم المقبلة.. وفوق هذا وذاك فإن مستوى المسيرين المحليين كان مقبولا إلى حد كبير.. فكنت تجد أساتذة ومدراء وموظفين وإطارات في مؤسسات عمومية يتقدمون للترشح للانتخابات المحلية وفي مخزونهم رصيد معرفي وإداري يسمح لهم بولوج عالم التسيير بسلالة وعن دراية..

بينما فتح عهد التفتح الباب واسعا أمام نوع جديد من المترشحين والمسيرين انتشر انتشار الوباء.. هذا النوع يتميز بالانتهازية الجارفة والوصولية المقيتة والمافوية البئيسة.. لقد تسلل أمثال هؤلاء إلى كل القطاعات تقريبا بداية من التسعينات حتى تعفنت وبلغت أوج الفساد مع الألفية الثالثة.. لقد أفسدوا السياسة والرياضة والاقتصاد والإعلام والدين أيضا..

لقد وظّفوا المال الفاسد في مشاريع وهمية ونهبوا المليارات وكان فساد الأرصفة الذي نحن بصدده بالنسبة لما فعلوه فيما بعد وما عاثوا به في الأرض فسادا يشبه لعب الأطفال..

لقد استقر في نفسي الآن بعد كل هذه العقود التي تلت الثمانينات أن المشي على رصيف مستوٍ.. متين.. وغير متشقق أو مكسور أضحى دليلا أكيدا على بداية التغيير الحقيقي.. وتحقيق التنمية المنشودة المفقودة .. ولكن إلى أن يحدث ذلك.. نبقى نمشي الهوينى خشية السقوط.. وآملين في مستقبل أفضل..

الوحدة المغاربية.. مشروع ولد ميتا

صورة شهيرة تلك التي جمعت رؤساء دول المغرب العربي: الشاذلي وزين العابدين والحسن الثاني والقذافي ومعاوية ولد الطايع ممثلين الجزائر وتونس والمغرب وليبيا وموريتانيا.. وهم يرفعون أيديهم إلى السماء دلالة على الوحدة والالتئام.. ولكن هيهات..

كنت حينها في السنة الثامنة أساسي ما يقابل الثانية متوسط.. وكان عقد الثمانينات يلفظ أنفاسه الأخيرة.. وكنا نتابع بفضول التحولات العالمية والإقليمية.. وأذكر كيف تابعنا بشغف وذهول سقوط جدار برلين وتوحيد الألمانيتين وبدايات الوحدة الأوربية..

واعتقدنا حين رأينا صورة الرؤساء المذكورين أن حلم الوحدة المنشودة بين الدول المغاربية قد تحقق أخيرا.. بعد قرون من انفراط عقده منذ أيام دولة الموحدين..

لقد تعلمنا في المدارس أن توحيد دول الشمال الإفريقي كان هدفا تسعى إليه الجزائر وتونس والمغرب حين كانت محتلة من الاستعمار الفرنسي.. ولا أدلّ على ذلك من تسمية مصالي الحاج رائد الحركة الوطنية في الجزائر حزبه الذي أسسه إبان العشرينات بنجم الشمال الإفريقي.. ناهيك عن الدورات الرياضية والخطابات السياسية والأغاني الوطنية التي كانت تدور كلها في فلك الوحدة والتوحيد..

غير أنه وبُعيَد أن نالت الجزائر استقلالها وسنة 1963 تحديدا إلا وتحوّلت الشعارات والأمنيات إلى خرافات.. بل إلى معارك وصراعات.. فكانت حرب الرمال بين الجزائر والمغرب الأقصى التي كادت تذهب بالأخضر واليابس.... حيث ظن المغاربة أن منطقة تندوف ستسلم لهم على طبق من فضة.. وحين رفضت السلطة الجزائرية ذلك رفضا قاطعا قامت الحرب على وقع صرخة الرئيس بن بلة الشهيرة " حقرونا" ..

ورغم أن الحرب وضعت أوزارها ولم تعمّر طويلا بفضل الوسطاء وتدخل العقلاء.. إلا أن الصراع بين الدولتين برز إلى السطح مجددا سنة 1975 إثر ضم المملكة المغربية للصحراء الغربية بعد انسحاب القوات الاسبانية منها..

ولم تعترف الجزائر أبدا بهذا الضم.. معلنة أنه لابد من إجراء استفتاء شعبي في الإقليم الصحراوي تطبيقا لمبدأ الحق في تقرير المصير.. ومذ ذاك والأزمة الصحراوية تلقي بظلالها على العلاقات الجزائرية- المغربية بين مد وجزر وإلى يومنا هذا..

إن المشكل الرئيس عند الأنظمة العربية هو مشكل الزعامة.. فالرئيس عموما لا يرى نفسه موظفا لدى الشعب.. يرعى مصالحه ويحسّن من أحواله ويسعى إلى تطويره نحو الأفضل.. لا لا بل هو الزعيم الملهم المعصوم الذي لن يجود الزمان بمثله.. أفعاله كلها صواب وعدل.. قراراته هي رأس الحكمة وعينها.. وحكمه نعمة وعطاء رباني.. ليته يدوم عقودا مديدة لينعم الشعب بأفضاله وتفضلاته.. وهذا النوع من الحكم تمتد جذوره – إن لم أكن مبالغا- منذ العهد الأموي إلى غاية أيامنا هاته.. والفرق بيننا وبين الغرب في مجال الفكر السياسي.. أن أوربا عرفت ثورة فكرية إبان القرن السابع عشر عرفت أوجّها خلال القرن الثامن عشر وخلاصتها أن الحاكم ليس مفوضا من الله وليس ظله في هذه الأرض وهو ما يسمى بالحكم الثيوقراطي.. بل أن هناك عقدا اجتماعيا بين الحاكم والمحكوم يتضمن اتفاقا بين الطرفين يتنازل المواطنون بموجبه عن بعض حقوقهم مقابل أن يحكموا بعدل ورشد.. وتطوّر هذا المفهوم بعد ثورات وتغييرات إلى أن وصل إلى وضع الدساتير وتعيين الصلاحيات والفصل بين السلطات وتحديد العهدات.. بينما عاشت الدول العربية والإسلامية في المقابل عصر الانحطاط الفكري والحضاري.. وعرفت شعوبها أسوأ فترات الاستبداد والطغيان.. وبعدها أحلك أنواع الاستعمار الذي امتد من القرن التاسع عشر إلى غاية أواسط القرن العشرين..

ومع موجة التحرر والاستقلال.. وجدت الأنظمة العربية نفسها أمام تساؤل كبير" ماذا نفعل؟" كما تساءل لينين من قبل حين أراد أن يطبق الاشتراكية في الواقع.. وكان أن أخذ الحكام العرب بأشكال الحكم الغربية: الرئاسة والبرلمان والدستور والديمقراطية..الخ لكن مع عقلية الحاكم العربي القديم.. ذلك لأن الفكر السياسي العربي لم يعرف تطورا يذكر ولم يخرج عن نصائح ومواعظ للحاكم ليس إلا.. ولم يناقش كما كان عليه الحال في أوربا آليات الحكم وأفضل السبل للوصول إلى الفصل بين نظام الحكم الدائم والحاكم المتغير.. بل صار الحاكم هو الدائم مطوّعا نظام الحكم وأساليبه لصالحه منطلقا من مبدأ الزعامة المطلقة الذي هو مضاد في جوهره لهاته الأساليب الديمقراطية المزعومة.. ومن هنا كان التناقض والمفارقة..

كل هذا يفسر جانبا كبيرا من فشل مشاريع الوحدة التي عرفتها الدول العربية في القديم والحديث.. إلى جانب عوامل أخرى سياسية واقتصادية وثقافية أيضا..

ففي حين قامت الوحدة الأوربية على الجانب الاقتصادي في الأساس بتسهيل التعاملات والتجارة المتبادلة وتوحيد العملة.. ونجحت في الوصول إلى نتائج باهرة معتمدة مبدأ التدرج والمرحلية.. كانت الوحدات العربية عبارة عن نزوات عاطفية عابرة.. غير مدروسة ولا موضوعية.. لذا كانت محدودة وقصيرة العمر.. زيادة على أن الزعماء العرب لا يمكن أن يرضخ أحدهم إلى الآخر طويلا أو يتنازل عن كبريائه إلا بفعل السيف أو المدفع..

وبالرغم من أن مالك بن نبي كان قد نادى في الخمسينات بكومنولث إسلامي يقوم على فكرة التكامل بين الدول الإسلامية غير أن الفكرة بقيت بعيدة عن التطبيق بفعل المشكلة الثقافية كما سمّاها الكاتب نفسه في كتاب له معروف..

ولذا فإن الوحدة المغاربية التي بزغ نجمها من جديد في نهاية الثمانينات كانت مجرد ردة فعل متأثرة بالمحيط الدولي والتكتلات الإقليمية الناجمة عن نظام دولي جديد.. لكنها ما لبثت أن اصطدمت بالواقع وبالصراعات الحدودية القديمة وبمشكل الزعامات المحتوم مما أدى إلى بقاء هذه الوحدة حبرا على ورق.. ومجرد شعار يرفع عند المناسبات..

لقد صدقنا نحن جيل الثمانينات بإمكانية الوحدة بين دول المغرب العربي.. بفعل الشحنة العاطفية التي كانت تميزنا.. كما صدقنا شعارات الاشتراكية والمساواة قبلها.. كما صدقنا الحل الإسلامي القريب بفعل الصحوة الإسلامية وتيارها الجارف.. ربما كان مرد ذلك إلى كوننا جيلا حالما مسالما وعاطفيا.. كوته نار التسعينات بلهيبها فيما بعد.. وحوّلت هذه الأحلام إلى كوابيس فجعلتنا بين حائر.. وجائر.. وخائر.. ومهاجر من بلد الجزائر..

الترابندو يسلك..

إنها نهاية الثمانينات.. ونهاية الاشتراكية بما كانت تعنيه من امتلاك الدولة لوسائل الإنتاج ومركزية مطلقة ومؤسسات عمومية مستقرة ومضمونة الدخل..

إنها بداية عهد جديد قائم على مبدأ " كل واحد يسلك روحو" أي أن كل الطرق مشروعة في سبيل تحصيل لقمة العيش.. خاصة مع بدء إعادة هيكلة بعض المؤسسات والشركات وغلق بعضها الآخر وتسريح العمال..

لقد ظهر مصطلح جديد حينها هو " الترابندو" ويعني تهريب السلع.. أو بالأحرى شراء سلع من دول أجنبية مختلفة كتركيا وفرنسا وإيطاليا محمولة في حقيبة أو شنطة بما سمّي بتجارة " الكابا".. وإعادة بيعها في الجزائر وتحصيل الربح الوفير والسريع..

لقد تحوّل كثير من هؤلاء التجار إلى أثرياء جدد في التسعينات.. امتلكوا بعدها المصانع والشركات.. غير أن معظمهم سلك طريق المال الفاسد والاعتماد على الرشاوى والإكراميات للحصول على القروض البنكية والتسهيلات..

وفي حين اكتفى التجار الصغار ببيع الملابس بمختلف أنواعها لسد حاجياتهم وادخار الأموال قصد الحصول على سكن لائق وسيارة مريحة وهو ما كان يمثل نجاحا باهرا بالنسبة لفرد من الطبقة المتوسطة.. كان آخرون بعيدي النظر.. وأكثر ذكاء ودهاء.. ومعرفة بالسوق الجديد ومتطلباته.. فاستثمروا في قطاعات ناشئة كالإعلام الآلي مثلا حين كان مجالا خصبا وجديدا.. فحققوا قفزة هائلة واستطاعوا فتح شركات ضخمة.. ونوّعوا بعدها في استثماراتهم بفضل شبكة العلاقات والوساطات..

كانت نهاية الثمانينات مرحلة انتقالية بالغة الأهمية ساهمت في تحوّل اجتماعي بعيد الغور.. يذكّرني بما عرفته مصر في السبعينات خلال ما سمّي بعصر الانفتاح.. حيث برزت إلى السطح ثقافة استهلاكية جديدة مبنية على دخول السلع المختلفة الموارد وفتح المجال واسعا أمام الشركات الأجنبية وأسواق السوبر ماركت.. وترويج البضائع والماركات عبر الفواصل الإعلانية التلفزيونية.. بما تناولته كثير من الروايات والأفلام والمسلسلات التي حاولت رصد هذه التغيرات العميقة في العقليات وأثرها على السلوكيات.. وأذكر هنا رواية أهل القمة التي تحولت إلى فيلم سينمائي عالج هذه الظواهر بعمق واقتدار.. وكيف أن متعلم الأمس وصاحب الشهادة والدرجة المرموقة في المجتمع خلّى مكانته إلى أصحاب الوجاهة الجدد أصحاب الأموال الملوثة والثقافة المحدودة والسمعة المصطنعة.. المغموسة في قضايا مشبوهة وسوابق معروفة.. ولكنهم للأسف قلبوا سلم القيم الاجتماعية رأسا على عقب وصاروا هم أهل القمة..

ولم تكن الجزائر بمنأى عن هذه التحولات حين تبنت نفس النهج تقريبا.. فقد عرفت الطبقة المتوسطة شرخا عميقا لما يزل آثره إلى أيامنا هاته.. وازدادت الهوة اتساعا بينها وبين الطبقة المرفهة الفارهة المستفيدة من امتيازات السوق المفتوح.. حتى اتسع الفتق على الراتق كما يقال.. وحدث الانكسار الاجتماعي الذي زادته وطأة الإرهاب شدة.. ليلغي المفهوم القديم للأسرة.. القائم على العائلة الكبيرة التي تتكون عادة من الأب والأم والأبناء والأحفاد إلى جانب الجد والجدة والتي تعود فيها الكلمة الأولى والأخيرة لرب الأسرة.. بحكم مكانته وتقديره وبما أنفق.. ليحل محلها مسخ لعائلة متفككة الأوصال.. يسعى كل فرد فيها إلى تحقيق استقلاليته المالية بأي وسيلة كانت.. فبرزت ظواهر جديدة أمثال الترابندو والبزنسة والكلوندستان أي الطاكسي غير المرخص وبيع السجائر على الطاولات في ناصية الشارع وعرض الملابس والبضائع على الأرصفة.. وغيرها من الظواهر كثير..

لقد رصد الفيلم الجزائري " عايلة كالناس" بعض مظاهر هذا التحول الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بأسلوب ساخر.. وأضفى عليه أداء عثمان عريوات العبقري نكهة خاصة.. لقد تناول الفيلم قصة رب عائلة متوسطة الدخل يعمل في الميناء ويحاول أن يوفر لزوجته وابنته الماكثتين في البيت وابنه البطال القوت اليومي.. أما ابنه الأكبر فيعمل نادلا

في أحد المطاعم الراقية في العاصمة ويحاول أن يجمع إلى جانب أجرته البسيطة بعض البقشيش متملقا زبائن هذا المطعم من الطبقة البرجوازية.. وهنا تخطر فكرة ذكية ببال الأم التي تحث زوجها على اقتراض مبلغ مالي من أخيه المجاهد السابق المستفيد من الامتيازات التي تمنحها الدولة لقدماء المجاهدين.. وبعد إلحاح وإلحاح يوافق الزوج ويقترض المال ويمنحه سريعا لابنيه قصد شراء سيارة قديمة قد أكل الدهر عليها وشرب.. وتأتي السيارة العتيقة.. فيعمل عليها الابن البطال سائق أجرة غير مرخص وبدون رخصة سياقة أيضا.. مستفيدا من هيام جاره الميكانيكي بأخته في تصليح الأعطال الدائمة التي تصيب تلك السيارة.. وحين يجني المال تبدأ أحوال الأسرة في التحسن.. فتشتري البنت ماكنة خياطة ويكثر زبائنها.. ويدخل الابن الأكبر النادل عالم تجارة الشنطة المدر للربح أيضا لتكون أخواته المتزوجات أول المهتمات بالألبسة المستوردة.. ويغدو كل فرد من الأسرة ذا دخل محترم مساهمين جميعا في تحسين أوضاع البيت وديكوره.. وناقلين العائلة إلى مستوى أرقى ماديا واجتماعيا.. وتخرج البنت من خانة المكوث بالبيت لتتابع تكوينا مهنيا وتتحصل على رخصة السياقة.. في إشارة إلى نوع من التحرر والاستقلالية.. ليختتم الفيلم بمشهد الأب والأم وهما يشاهدان بشغف أحد مقاطع الإشهار الأجنبية على إحدى القنوات الفرنسية دليلا على تركيب الهوائي المقعر من جهة ودلالة على التفتح والتطلع إلى ثقافة ما وراء البحار كما كانت الموضة آنذاك من جهة ثانية.. وهكذا تصبح " عايلة كالناس" أي أسرة مواكبة للعقلية الجديدة التي تقتضي استعمال كل الوسائل المتاحة في سبيل تحسين الظروف المادية.. ولو كان على حساب القيم والمبادئ والتقاليد..

لقد عبّرت ظاهرة الترابندو بحق عن ملامح جزائر التسعينات.. إنها جزائر أخرى دخلت قرنا آخر مبكرا.. غابت فيه الفكرة والقيمة التي من أجلها يضحي المؤمن بها بالغالي والنفيس.. سواء أكانت قومية أو ايديولوجية أو عقائدية.. إنها جزائر الفرص السانحة.. والشاطر هو من ينتهزها بذكاء وسرعة.. والأحمق من تجاوزه الزمن وبقي حبيس أفكار بالية..

لقد تأقلم الكثير مع هذه التحولات السريعة والمفاجئة.. وكانت حقيبة البضائع المهربة سبيلا لحقائب أخرى مملوءة مالا فاسدا.. وتحالفت فيما بعد مع بعض الحقائب الوزارية الانتهازية فيما عرف بالمافيا السياسية-المالية والتي فعلت الأفاعيل في التسعينات وما بعدها.. وكانت وراء كثير من المآسي والآفات التي عانتها الجزائر.. فاستولت على العقارات والمنقولات والثروات.. وتحولّت إلى عصابات.. تغلغلت وتجذّرت وتغولت وأتت على الأخضر واليابس..

وكل شيء انطلق من حقيبة..

عشرية تنتهي .. ولا تنتهي

أشرفت الثمانينات على الأزوف والانتهاء.. ومع نهايتها لم نكن نودع عشرية وكفى.. بل كنا نوّدع معها عالما قديما ونستقبل عالما آخر جديدا مليء بالتغيرات والمفاجآت..

لقد تصدع المعسكر الشرقي ومعه الدول الاشتراكية الأوربية كلها.. وسقط جدار برلين بين الألمانيتين وزال الحلم الاشتراكي والشيوعي لمن كان بهما مؤمنا.. ولم تعد لكلمات التقدمية والامبريالية والبروليتارية طعم ولا معنى.. وخرج الاتحاد السوفييتي من أفغانستان خائر القوى قبل أن ينهار هو الآخر وتتفتت دوله.. بعد وصول غورباتشوف إلى سدة الحكم ومشروعه التصالحي" الغلاسنوست" والإصلاحي " البريسترويكا " .. ليغدو العالم أحادي القطب وتزول الثنائية التي عرفها لعقود مديدة..

أما بالنسبة لأمريكا فلقد مثّلت الثمانينات حقبة الليبرالية القصوىl'ultralibéralisme على طريقة رونالد ريغان.. حيث تفوّق اقتصاد السوق ومعه النموذج الاستهلاكي.. وكانت أيضا موضة مشروع "حرب النجوم" وما أتبعها من إنهاك السوفيات في سباق التسلح حتى الاستسلام والقبول بمعاهدات سولت لنزع السلاح.. كما انتصرت الأفلام الأميركية والموسيقى الأمريكية وطريقة العيش الأمريكية american way of life لتفرض سيطرتها إيذانا بعملية أمركة واسعة للعالم فيما سمي بعدُ بالعولمة..

في مصر مثّلت الثمانينات بداية عهد مباركي امتد بعدها عقودا ثلاثة.. ولم ينته إلا مع نسائم الربيع العربي أو هكذا سمي.. نتيجة لتحالف المال الطالح مع السياسي الطامح.. واستمرت فيه سياسة الانفتاح مع ما تخللها من مشاكل اجتماعية وأزمات متوالية.. وبلغت فيه السينما المصرية أوجّها مع الثلاثية النظيفة و الهادفة "العار" و "الكيف" و"جري الوحوش" ومع جيل من الفنانين الذين تركوا بصماتهم واضحة على الفن السابع أمثال يحي الفخراني وصلاح السعدني ونور الشريف وأحمد زكي ومحمود ياسين ومحمود عبد العزيز.. قبل أن تدركها ثم تسبقها السينما والمسلسلات السورية والمكسيكية في التسعينات.. وتنضم إليهما التركية الإيرانية والهندية.. وما شئت من الجنسيات.. ليزول بذلك تدريجيا سلاح القوة الناعمة الذي طالما اعتمدت عليه مصر في امتدادها وتأثيرها على العالم العربي..

لقد عادت الجامعة العربية إلى القاهرة مرة أخرى في أواخر الثمانينات بعد أن كان مقرها في تونس بعد تجاذبات وتنازلات.. ولكن الوحدة العربية الجامعة لم تعد معها أبدا.. بل العكس هو الصحيح.. فبعد حرب خليج ضروس أولى بين العراق وإيران ميزّت عقد الثمانينات وانتهت بلا غالب ولا مغلوب.. اندلعت حرب خليج ثانية عراقية كويتية في التسعينات.. امتدت فيها بؤرة الصراع لتمتد إلى العالم أجمع.. ولتقسم البيت العربي مرة أخرى.. فيتكوّن تحالف دولي لم يسبق له مثيل منذ الحرب العالمية الثانية.. ويخرج العراق من الكويت بعد حرب غريبة الأطوار كانت إيذانا بتغير الخارطة السياسية العربية إلى أجل لا يعرفه إلا الله.. وكأنه كتب على العرب أبدا أن يخطط لهم غيرهم سلمهم وحروبهم وثوراتهم وحدودهم وأعلامهم وحتى مستقبلهم..

بداية الثمانينات كانت بالنسبة للجزائر عهدا جديدا مع الرئيس الشاذلي.. الذي وعلى عادة الرؤساء والملوك العرب جميعهم حاول أن يتخلص من بقايا العهد البومديني(نسبة لبومدين) البائد.. بالإقصاء التدريجي لجميع المنتمين إليه والمحسوبين عليه في كل القطاعات.. وبوضع حد لتجربة الثورات الثلاث الزراعية والصناعية والثقافية.. بالرغم من أن أول خطاب كان تمجيدا للرئيس السابق وتأكيدا على الوفاء لمسار الرجل وسيرته..

كانت الجزائر تملك آمالا كبيرة على حد تعبير شارلز ديكنز.. وحق لها ذلك بما تملكه من ثروات وإمكانات.. وقد وعد الرئيس الجديد ابن جديد.. بحياة أفضل ملؤها الصرامة والعمل.. لكن العكس تماما هو الذي حدث.. لقد تميزت العشرية بالكسل ثم توجت مشاريعها بالركود وبالفشل.. حتى سميت بالعشرية السوداء.. ولكن على من يقع اللوم في ذلك ؟

في الحقيقة لا أحب كثيرا هذه الألوان التي توسم بها العشريات.. فواحدة سوداء وأخرى حمراء وثالثة بيضاء.. وكأننا في متجر اللعب.. فلكل حقبة محاسنها ومساوئها.. و صوابها ومصائبها.. وإلا فلا أدري حقا أي لون سيطلقه محبو الألوان هؤلاء على عشريتي بوتفليقة؟

ما يهمنا أن مشاريع الجزائر الطموحة في الثمانينات توقفت جلها أو كلها إثر الأزمة البترولية العالمية 86 مما أوقد نار انتفاضة أكتوبر 88 التي غيّرت مسار الأمور وعجّلت بسقوط الاشتراكية على شاكلة دول أوربا الشرقية.. وأدخلتنا في نظام جديد على نهج النظام الدولي الجديد.. فهل كنا مستعدين لكل هذه التغيرات السريعة والعميقة ؟

كثيرة هي التساؤلات التي تطرحها مرحلة الثمانينات.. والإجابات تحتاج إلى كثير من الكتابات.. غير أن التحولات التي طرأت على بلادنا تذكرني شيئا ما بما حدث بعد الثورة الفرنسية الشهيرة سنة 1789.. فقد كانت ثورة طبقة برجوازية تملك الثروات المنقولة (التجارة) ضد طبقة أرستقراطية تعتمد على الثروات غير المنقولة (الأراضي) وبعد كثير من التطورات ورثت البرجوازية الحكم ثم حمّلت هذه الثورة ما لا تحتمل.. وجعلتها ثورة شعب كامل.. بعد أن أضفت عليها فيما بعد كلمات الحرية والإخاء والمساواة .. وما شابهها من الشعارات البراقة الجذابة.. التي نرددها للأسف من غير إعمال عقل ولا روية.. بالرغم من أن تلك الثورة وسمت في حينها بالعنف والدموية..

وكذلكم انتفاضة أكتوبر.. فحين خرجت إلى الشوارع جموع من الغاضبين والمطحونين والمسحوقين من اشتراكية دامت ربع قرن لم يكونوا يطالبون إلا بتوفير الضروريات وبشيء من الكرامة.. وبحياة أفضل لم يجدوها أبدا إلا في شعارات مؤتمرات الحزب الواحد التي كانت تعقد في الصالات المغلقة.. ولم يخطر ببال تلك الجموع أن تُحول وتحوّر مطالبهم البسيطة وتتخذ مطية لقوانين ومشايع ودساتير كانت تعبّر في الواقع عن صراع جناح ضد جناح آخر في السلطة.. ثم تمخضت عن دستور جديد ونظام جديد – في الظاهر على الأقل- قائم على اقتصاد السوق والتعددية الحزبية.. لتضيع المطالبات وسط الحسابات..

كانت الدولة في الماضي دولة قمعية تسلطية تراقب كل شيء وتملك كل شيء وتعامل شعبها كالطفل القاصر الذي لا يملك من أمره شيئا ويعتمد على دولته كما يعتمد على أمه ولا يرى العالم إلا من خلالها.. ورئيس الدولة يتقمص دور الأب الفظ الذي يفرض على ابنه مزيجا من الحب والاحترام الذي يصل التقديس.. والكره الناجم عن القسوة والجبروت..

ثم تحولت فجأة إلى دولة تخلت عن دورها الراعي وتركت شعبها مسؤولا عن نفسه بالرغم من أنه لم يدرك بعدُ سن الفطام.. لقد كان انفصالا صعبا وقاسيا كما يكون الطلاق.. فأصبح كل فرد من هذا الشعب يبحث عن تدبر أموره كيفما اتفق.. وتلك كانت الحرية كما فهمناها..

على المستوى الشخصي.. كنت أتابع الثمانينات بشغف طفل في الابتدائية.. ثم بحيرة فتى في الإكمالية وبعدها بتوجسات شاب في الثانوية.. ولم أك أعلم حينها أن الثمانينات لما انتهت

حسابيا .. لم تنته كليا.. وأن آثارها سكنتني كما سكنت أبناء جيلي لتخرق حُجُب الزمن.. ولتمتد إلى أجل غير مسمى..

العودة إلى المستقبل..

إنه عنوان فيلم أمريكي شهير يتلاعب بالألفاظ.. فالمفروض أن يعود الإنسان إلى الماضي.. لكن المشكلة أن بطل الفيلم الذي أراد أن يسافر ثلاثين سنة في المستقبل.. عاد بدلا من ذلك ثلاثين سنة إلى الوراء.. إلى سنوات الخمسينات التي تمثل أزهى عصور أمريكا.. وكان في ذلك رسالة واضحة من الكاتب إلى ضرورة العودة إلى قيم العائلة والمبادئ الأخلاقية بعدما أضحى المجتمع الأمريكي خلال الثمانينات مغرقا في الاستهلاك والفردية والأنانية.. وانتخب على رأسه ممثلا من هوليود.. كما قاله أحد ممثلي الفيلم بسخرية لاذعة..

ما أعجبني في فكرة الفيلم أن الإنسان مغرم في العموم بمعرفة مستقبله ويعتقد أن التطور العلمي والتكنولوجي سيجعل حياته أفضل.. لكنه لا يضع في حسبانه أن السعادة الحقيقية التي هي مطلب كل إنسان عاقل لا تكون بالضرورة في وسائل الرفاه والترفيه.. بل قد يدركها في أشياء أخرى لا تقدر بثمن ولا يمكن أن يجدها بحال في أقرب سوبر ماركت مهما عظم.. وقد يُضيّع في طريق بحثه الدائم عن السعادة كثيرا من قيمه ومقوماته ومبادئه.. ثم يدرك متأخرا أنه كان من الأجدر أن يتمسك بماضيه المجيد السعيد بدل أن يتخلى عنه لأجل مستقبل خال من كل قيمة جميلة في صفقة خاسرة..

كذلكم كانت الثمانينات بالنسبة لنا نحن الجزائريين.. لقد كان فيها الطيبة والصدق والبساطة وكثير من النوايا الحسنة.. كانت قيم التكافل والتواصل الاجتماعي طاغية رغم قلة الوسائل.. لقد كان التزاور والتآزر من شيم الأسر والعائلات.. مهما بعدت الشُقة والمسافات.. لقد كانت الجيرة الطيبة ميزة سكان العمارات.. لقد كانت الأفراح يتقاسمها أهل الحي كلهم.. كانوا يتعاونون في الأعراس ويقيمونها في الأسطح.. فيحضر المئات فيأكلون ويسمرون ولا يشتكون قلة ولا ضجرا .. كانوا يهللون ويهشون لنجاح التلميذ في الابتدائية والإكمالية والطالب في الثانوية حينما يتحصل هؤلاء على شهاداتهم.. يوم أن كان للشهادات قيمة ومستوى..

لقد كنت تحس في كل الأمور لذة وتلمس بركة ما.. بركة في الطعام وفي الدراسة وفي الناس أيضا.. بركة في المكان والزمان معا.. تتسع الشقة الصغيرة للجم الغفير.. وتمتد عطل آخر الأسبوع فضلا عن العطل الفصلية إلى ما شاء الله من الوقت.. فكنا نلهو ونذاكر ونشاهد التلفاز ونستقبل الضيوف أو نغدو نحن للزيارة.. ويبقى من الوقت متسع..

هل يعني هذا أن الثمانينات كانت قطعة من الجنة لا كدر فيها ولا وصب.. لا الأمر ليس كذلك إطلاقا.. بل كانت قلة ذات اليد وقلة المواد الأساسية وقلة المواصلات سمة أصيلة لغالب المجتمع.. ولصيقة بالاشتراكية على الطريقة الجزائرية.. لكن طمع الناس كان قليلا.. وكان الرضا هو أساس المعشية.. فكان الغنى يعم الجميع.. أعني الغنى النفسي لا المادي..

حينما أسترجع هذه الذكريات أقارنها بما تلاها من تغيرات مست عمق المجتمع وتكوينه.. لقد تخلينا في التسعينات وما بعدها عن كثير من المبادئ والقيم الحسنة في مقابل الحصول على

مكاسب مادية ومكانة اجتماعية.. حتى وصل الأمر بنسبة الشخص للفيلا التي يقطنها أو السيارة التي يقودها أو المصنع الذي يمتلكه.. ولا يهم في ذلك اسمه ولا لقبه.. فهل كان الأمر يستحق ذلك؟

كلنا يحفظ مقولة.. بإمكانك أن تربح العالم ولكنك ستخسر نفسك في الأخير.. نعم إن الذي حدث مع نهاية الثمانينات يقترب من ذلك.. لقد أضحى التربح والمكسب السهل مطلب الجميع.. ولو كان ذلك على حساب النفس.. وكثيرا ما تساءلت في قرارة نفسي.. كيف أنه وبمجرد دخولنا عالم الليبرالية أو اقتصاد السوق.. تحولت حياتنا إلى سوق.. يباع فيه ويشترى كل شيء.. ولكل شيء ثمنه.. حتى الإنسان.. وكيف اختفى مجتمع الثمانينات بطيبة أهله فجأة ومن دون مقدمات.. تراه انقرض ؟

إن دراسة النفس البشرية بما تحمله من نوازع الخير والشر لهي مهمة عويصة ومعقدة.. وما الحياة في حقيقتها إلا صراع دائم بين دواعي الهداية والغواية.. والمتفوق في الأخير هو من ينجح في الارتقاء بنفسه ويتعالى عن عالم المادة مرجّحا عالم الروح لينال الجنة جائزة وجزاء.. وما أصعبه من صراع وما أجمله من جزاء.. غير أن معادن الناس لا تظهر إلا حين تصطلي بنار الابتلاء.. وحينما تقرّب إلى الناس شهوات الأموال المقترفة والتجارة المربحة والمساكن الرضية والمناصب المتاحة.. هناك فقط تظهر إلى الواقع المعيش خبايا النفوس النهمة بين طموح الطامحين وأطماع الطامعين .. وقد كان..

إن مجتمع الثمانينات بكل ما حمله من قيم صادقة لم يغتل ولم يختف فجأة.. لقد توارى بسرعة ليظهر في ظل الانفتاح أسوأ أفراده ويلمعهم ويوصلهم إلى القمة بعد أن كانوا في الظل.. حتى أضحوا رموز النجاح.. بغض النظر عن مستواهم الدراسي والأخلاقي.. وبعيدا عن الطرق الملتوية التي سلكوها للوصول إلى المكانة الاجتماعية المرموقة التي بلغوها..

وحينها صار التساؤل الطبيعي والمنطقي مباحا ومتاحا للجميع: لما لا أفعل مثل فلان المليونير .. ثم المليارديير.. ثم ما شئت من أصفار كثيرة على يمين الحساب البنكي..

بتعبير آخر.. كانت الليبرالية بالنسبة لنا كصندوق بندورا الذي يحمل كل الشرور والمساوئ البشرية.. وبمجرد فتحه انتشرت هذه الشرور بسرعة وبقوة.. وحطمت في طريقها كل المبادئ والقيم.. ولكن أكان لها أن تنتشر انتشار النار في الهشيم.. لو لم تجد قابلية في النفوس !!

قد يقول قائل أنني مبالغ في وصفي وفي نظرتي ؟ ! ربما.. وأنا أعذر هنا أولئك الذين يقرؤون هاته الكلمات ولم يعيشوا نهاية الثمانينات وبداية التسعينات .. ولم يشهدوا ذلك الانقلاب الاجتماعي الرهيب.. فليس من رأى كمن سمع.. ولكن الأكيد أن ما زرعناه في تلك المرحلة من بذور الفساد حصدناه بعد ثلاثين سنة.. وما أسوأه من حصاد..

لقد صار الجميع يردد الآن شعار" **يروحو قاع**" أي " **فليذهب الجميع**" .. وكنت ولازلت مصرّا على أن هذا الشعار ما هو إلا سراب يحسبه الظمآن ماء.. حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.. ذلك أنه لو قصدنا بالجميع هنا" المسؤولين" الذين حكموا طيلة عشريتي الفساد فمن البديهي أن نتساءل من أين أتى هؤلاء.. أليسوا من صميم المجتمع الذي تذوق واستمرأ الفساد طيلة ثلاثة عقود.. من العون البسيط إلى غاية أكبر مسؤول..

أما إذا عنينا بذلك أن الجميع هنا هي المنظومة ككل.. فالمقصود إذاً أن يترك الشعب والسلطة البلد معاً في **حرقة جماعية** للبحث عن بلد آخر لإفساده .. فيا له من منطق..

إن الحاضر غرس الماضي.. وما الثمانينات إلا جزء من ذلك الماضي.. والذي نحتاج للعودة إليه بين الفينة والأخرى.. لفهمه والتصالح معه.. ولتلافي أخطائه وتثمين مزاياه..

والمستقبل هو جني الحاضر.. وبناء مستقبل مشرق لن يتأتى إلا بحاضر قائم على فكر حصيف.. وضمير نظيف.. وعمل جاد شريف.. فلنأمل.. ولنتفاءل.. بغد لعله أفضل..

(B)

/